نبضات قلب مرهف

ديوان السُّلطانِ محمَّد الفاتح

٨٣٣ - ٨٨٦هـ

رحمه الله تعالى

المسمّى ديوان عوني

عرّبه نظمًا وقدم له

علي محمد زينو

أروقة

للدراسات والنشر

ديوان
السلطان محمد الفاتح

□ ديوان السلطان محمد الفاتح
عربه نظماً وقدم له : علي محمد زينو
الطبعة الأولى : ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

قياس القطع : ١٤ × ٢١
الرقم المعياري الدولي : ٩٧٨٩٩٥٧٥٦٦٢٦٥ : ISBN
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٤٨٧/ ٧/ ٢٠١٣)

أروقة للدراسات والنشر
هاتف وفاكس : ٤٦٤٦١٦٣ (٠٠٩٦٢٦)
ص.ب : ١٩١٦٣ عمـان ١١١٩٦ الأردن
البريد الإلكتروني : info@arwiqa.net
الموقع الإلكتروني : www.arwiqa.net

نبضات قلب مرهف

ديوان السلطان محمد الفاتح

٨٣٣ - ٨٨٦هـ

رحمه الله تعالى

المسمى ديوان عوني

عرّبه نظماً وقدّم له

علي محمد زينو

أروقة

للدراسات والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قبسٌ من نور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

[الشعراء: ٢٢٤- ٢٢٧]

بين يدي الديوان

بسم الله الرحمن الرحيم

حالَـما أمسكتُ أوراقي وفتّشتُ بينها عن مسوّدات ديوان السلطان محمد الفاتح عبَرَ أمام عينيَّ شريطٌ من الذكريات جمع بينَ وهج البحث عن الحقيقة، وبين شغف ريّ الفُضول.

المشهد الأول:

الغاية الأولى التي بحثت من أجلها عن ديوان محمد الفاتح هي دعم السيناريو التلفزيوني الذي كنتُ بصدد كتابته آنذاك عن هذه الشخصية الفذّة، لقد كنتُ أبحث عن بعضِ كلماتٍ للسلطان الفاتح العظيم؛ لأُثبتَ من خلالها سموّ روحِه وإنسانيته، وأنفيَ عنه تهم الهمجية والبربرية.

بدأتُ البحث لعلّي أجد قصيدةً له في إحدى المكتبات في دمشق... حاولتُ مراراً، لكنّي في كل مرة كنتُ أجدُ في وجوه أصحاب المكتبات ملامحَ دهشة!

أقولُ لأحدهم: أبحثُ عن قصائـد شعرٍ للسلطان محمد الفاتح.

فيقول: تريدين قصائدَ مديح عن السلطان؟

أجيبه: لا يا سيدي، أريد قصائدَ الشعر التي كتبها السلطان محمد الفاتح!

تزداد الدهشــة في عينـيه وهو يقول: وهل كان السلطانُ العثماني شاعراً؟!

تكرر هذا الموقف كثيـراً... توجهت للمكتبة الوطنية في دمشق في البحث... وجدت قصائدَ مدَحَ فيها الشعراءُ السلطان الفاتح، غير أنّي وجدت في بعض الكـتب مقطعاً صغيـراً قاله السلطان الفاتح في الجهاد، إلّا أنه لم يُـشبع فضولي الذي أثارته دهشةُ الناس من الفكرة أكثرَ فأكثر.

المشهد الثاني:

عزمتُ على البحث بشكل أوسع بحثاً يشمل بعض خزائن المخطوطات والكتب النادرة في دمشق وحلب واللاذقية، مرت أسابيع دون جدوى.

وتوالت المشاهد:

قرّرت البحث عن القصائد في مصر؛ لسببين: أولهما: توفُّر مَن يستطيع مساعدتي في هذا الصدد.

وثانيهمـا: أن بعض الكتب التي قرأتُها في المكتبة الوطنية بدمشق أكّـدت أن العديد من الكتب النادرة موجودة في مكتبة الإسكندرية والقاهرة تتحدث عن العهد العثمـاني، فلعلّي أجدُ ضالتي هناك.

مرت أشهرٌ كذلك بلا جدوى، ولم أجد كـتباً أو مراجعَ تفوق ما حصلتُ عليه في بلادي.

حينها قررتُ الاستعانة بالسفارة التـركية في دمشق علّها تعينني في هذا الشأن، وهناك تعاطف أحد الموظفين مع شغفي

للمعرفة وأرسل إلى صديقه الشخصي في إحدى المنظمات الثقافية في استانبول، وكان سبباً طيباً في التعرف على مدير القسم الحرفي في المنظمة.

حدّثته عن معاناة أشهر طويلة في البحث عن شعر السلطان الفاتح، فابتسم وقال: لا تلومي المكتبات العربية فكذلك حال المكتبات التركية التي تعنى بالكتب الثقافية ... استبشرت كونه عاتباً مثلي على قلة الجهد الثقافي.

صمت قليلاً ثم سأل باهتمام بالغ: هل أنت متأكدة من وجود أشعار للسلطان محمد الفاتح؟

سرعان ما اختطف سؤاله البشرى من وجهي وأبدلها يأساً... أجبته: أنا لست متأكدة من وجود شعر للسلطان محمد الفاتح، بل أنا أجزم بوجود ديوان من الشعر ورد ذكره على لسان بعض المؤرخين الأتراك اسمه «ديوان عوني»!

عاد للصمت مجدداً ثم قال: سأكلف موظفاً خاصّاً من مكتبي للبحث عن الديوان، فإن وجدَهُ فلكِ الفضلُ بزيادة معرفتي.

بعدما مضت على هذا الحوار ثلاثـة أشهر ـ وقد بلغت حينها فترة البحث عن الديوان ستة أشهر ـ تحدّث إليّ بعدها السيد المديرُ ليـزف إليّ البشرى بعثوره على ديوان محمد الفاتح في بعض ما أصدرته الحكومة التركية، لكنه كـتاب غير متداول، ولا يمكنه إرسال نسخة إليّ.

أخبرته بأنني على استعداد للسفر إلى استـانبول ونسخ الديوان يدوياً إن استطاع توفير الكتاب لمدة أسبوع؛ فأجابني بأنه سيحاول... غاب عشرة أيام وأنا أنتظر انتظار الملهوف، ثم اتصل وأخبرني أنه استطاع تصوير جزء من الكتاب فيه ديوان محمد الفاتح... وطارت بي الدنيا فرحاً بهذا الإنجاز بعد بحثٍ دام سبعة أشهر.

وصل البريدُ بعد شهر آخر من الانتظار وفتحت الظرف لأكحلَ عيني بهذا الديوان المغمورِ على الرغم من عظمته.

بعدما أخذ الفرح أعلى حـدودِه مني عدتُ إلى النـشاط، بدأت رحلـةً جديدة من البحث عن ترجمان تركي... لم تكن المهمة صعبةً هذه الـمرة؛ حيث عثرت على مترجم فأعطيته ورقة

من الديوان لترجمتها وهنا كانت الـمفاجأة... الديوان مكتوب بالأحرف التركية ولكنه باللغة العثمانية!

قالـها الترجمان وسكتَ منتظراً أية ردّة فعل مني، إلّا أنني بقيتُ لدقائقَ لا أدري ما أقول... لقد أصابني الذهول والجمود!

بدأت رحلة هي أصعبُ من سابقتها، وهي رحلة البحث عن ترجمان للغة العثمانية، وحتماً لن أجد مثل هذا الترجمان في بلادي، فتوجهت إلى بعض الأصدقاء في تركيا، وسألتهم العون والبحث عن ترجمان يقوم بترجمة الديوان من اللغة العثمانية إلى التركية، ثم نعيد ترجمتها من اللغة التركية إلى العربية...

طـال البحث ـ وما أصعـب العمـل بذراعَي غيـرِك لا بذراعَيك ـ ولكن للصبر طعمٌ جميل يُنسي مشقة البحث والعمل...

الحمد لله... كان من فضل رب العالمين أن جمعتني المقاديرُ عن طريق أحد الأصدقاء في تركيا بترجمان فقيه باللغة العثمانية، وهم ـ للعلم ـ قلة هناك! وهذا أثار استغرابي في بلدٍ كان لسنين طويلة تتحدث وتكتب اللغة العثمـانية، ومن المعيب اندثار هذه الثقافة التاريخية العريقة.

على أيّة حال... أرسلت الديوان للترجمان من جديد إلى تركيا، ومكث عندَه قرابة الشهرين في الترجمة من اللغة العثمانية إلى التركية فالعربية...

هنا بدأ مشـوار آخرُ للعثور على شاعرٍ متمكنٍ ينظم هذا الديوان بالعربية، ويُـقدّر بطله، ويحرص كلَّ الحرص على صوغ مشاعره بأسلوب يليق بالفاتح العظيم.

الحمد لله كان الاتـفاق مع الشـيخ الشـاعر «علي محمد زينـو» الذي كان أميناً على تاريخ البطـل كمـا شئـتُ بل زاد عليه! لقد أعاد صياغة الديوان، في أثناء ذلك تناقـشنا في كثيرٍ من محاوره، وحول العديد من المشاعر التي أفاضَ بها السلطانَ الفاتح.

المشهد قبل الأخير:

بعد انتظار سنواتٍ أنهيت فيها كتابة السيناريو التلفزيوني لمسلسلٍ لم يُكتب له الظهورُ بعدُ عن شخصية هذا العبقري العظيم فاتح القسطنطينية...

وبعد كل ما كان من العناء في هذا المشوار الطويل... هذه هي الثمرة ... بل الدرّة أو الجوهرة: «ديوان عوني» باللغة العربية منظوماً بأوزان الشعر العربيّ، محافظاً على القدر الأكبر الممكن من أحاسيس وعواطف وتصويرات بل وألفاظ كاتبه السلطان محمد الفاتح.

بعد ذلك كله ألحّ عليّ ناظمُ الديوان بضرورة نشر هذا العمل، وأشار عليّ بتقديمه إلى «أروقة للدراسات والنشر» الدار المتميزة التي تقدّر أمثال هذه الفرائد، وتحرص على نشر هذه النوادر، ممثلة بشخص صاحبها الشيخ المحقق إياد أحمد الغوج.

فتُقُبِّلَ الديوانُ بقَبولٍ حسن، وقامت الدار مشكورةً بإخراج هذا الديوان بهذه الحلّة القشيبة، وقدّمته بهذا المظهر الرائع، والشكل الأنيق.

أرجو لهذا العملِ القَبول عند الله تعالى، والانتشارَ والذيوعَ؛ لِـما يحمله من قيمة ثقافية ـ تاريخية ـ عاطفية، وما أكثرَ احتياجَنا لهذه الركائز من المعاني الإنسانية عموماً في حياتنا ...

المشهد الأخير وهدية الختام:

هذا الديوان سيكون ـ بإذن الله ـ فاتحةً لسلسلةٍ فريدة من دواوينَ للسلاطين العثمـانيـين، ومؤلفاتٍ نـثرية وجدانية لهم؛ نعمل بإذن الله تعالى على تهيئتها للنشر، ونسأل الله تعالى أن يُـيسّر أسبابَ ذلك بكرمه ورحمته، والحمد لله رب العالمين.

الباحثة روان الحلبي

دمشق

مقدمة الناظم

الحمد لله الذي ميّـز الإنسانَ عن الخلائـق بالأحاسـيس والـمَشاعِر، والصلاة والسلام على سيّد الثّـقَلَين الذي هـزّت شمائلُهُ لسانَ الناثر وقريحة الشاعِر، وعلى آله الطيبين، وأصحابه الميامين، وتابعيهم ما لبّى وطافَ أهل النُّسْكِ في الـمَشاعِر.

وبعدُ،

فإنّ الإنسان الذي أنعم الله عليه برهافة الـحسّ، ولطافة النفس، وأسبغَ سبحانَـهُ على قلبهِ فيضَ رقّـةٍ، وعلى بصيرته نوراً ودقّة؛ لـيَرى في هذا الكونِ الفسيحِ مظاهرَ عظَمةِ الباري جلّ وعَلا، ويلمحُ في كلّ صغيرٍ وكبيرٍ من المخلوقات آثارَ الأسمـاء الحُسنى والصفاتِ العُلى.

وإنّ الإنسانَ، مخلوقَ الله المكرَّمَ، لهو أكثرُ ما في هذا الوجود

غرابة وغموضاً، وروعةً وسحراً؛ لِـما فيه من عجيب الصنّعِ اللهُ تعالى أبدَعَه، ومن سـرٍّ لاصطفائه فيه أودعَه.

إنّ هذا الإنسانَ يَـجمَعُ كلّ الصفاتِ حسُنت أو قبُحت، ويبلغ في كـلٍّ منها الـمنتهى، ويصل معها إلى الغاية القُصوى، والدرجة العُليا.

فهُوَ قد يكون مؤمناً يبلغ به إيمانه حقّ اليقين، بل عين اليقين، وقد يكون كافراً بلغ العناد به حدّ ما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤-١٥].

وهو قد يكون مُرهفَ الشعور، رقيق الإحساس؛ حتى إنه ليبكي لعَثرةِ طفل، أو فاقةِ مُحتاج، أو سقمِ عليل، أو كِبَـرِ هَرِم!

أو قد يتبلّدُ شعورُه، وتتحجّرُ روحُهُ، وتَفَظُّ نفسُهُ، ويقسو قلبُه؛ حتى إنّه ليلتذُّ، بل يعيشُ على معاناة الآخرين، وظُلمِهِ الغيرَ، ويقتاتُ برؤيته عذابَ المتعذّبين بسببه، وذلّ الأذلاء بكِبرِه، وقد لا ترى عينهُ حسناً إلا الدمَ مسفوحاً، والأرواح مُزهَقة، كأنه

مخلوقٌ ليست كباقي البشر خِلقتُهُ، أو إنّ فيه كِبرَ آلهة المُشركين، وأبالسة الشياطين!

ودعْنا ـ أيها القارئُ الفاضل الكريم ـ من هذا الصنفِ الأخير قبّحه الله!

ولنبْقَ معاً عند الفئة الأولى من العِبادِ الذين نَعَتناهم، والأخيار الذين وصَفْناهم، وقبلَ أن يثور في نفسِكَ السؤالُ عن سببِ تمييزِهم ـ في كلامي ـ بميزةِ العبوديّة، ومزيّة الخيريّة؟

فإنّي مُبادرٌ إليكَ بالإجابة:

إنّ ابنَ آدمَ لو تركَهُ الله لنفسِه، وحجبَ عنه مددَ ألطافه، لَانحرفت عن السَّواء فطرتُه، واعوجّت إلى الشرّ طبيعتُه!

وإنّهُ ـ أي: الإنسان ـ سويُّ الخِلقة، سليم الفِطرة، إلا أنهُ قابلٌ للفساد قابليةً عجيبة، فكأنه لحمٌ غضٌّ طريٌّ، أو طعامٌ مُتقَنُ الطبخ شهيّ، لو تُرِكَ لبادرت إليه العفونة، وغلب عليه النتن، وسارَعَ إليه الخراب.

والواحدُ منا ـ معاشرَ البشر ـ ما لم يحفَظِ اللهُ تعالى روحَه

وقلبَه ونفسَه بحفظ الإيمان، وما لم يَصُنهُ بصيانة التوحيد، هاوٍ إلى الدرك الأسفل، وساقطٌ إلى المقام الأرذل، ومُنحطٌّ إلى شرِّ مُنزَل.

وهنا قفْ ـ أيُّها الأخُ الفاضل القارئ الكريم ـ وتـخيّل من شـئتَ من رموز العظمة، وأعلام السموّ، ونجوم الـرّفعة، وجبالِ الفضائل، وبحارِ الكرم، ممن شئتَ من الناس، وأحببت من الورى.

لا ريبَ أنّـكَ ـ الآن ـ تشعر بنشوةٍ غريبة، وتعيش لـذّة عظيمة؛ إذ نظرتَ بعين قلبِكَ إلى بعضِ الأفاضل، ورنَوتَ ببصرِ روحكَ إلى أحدِ الأماثل.

ولكنْ... إيّاكَ إيَّاكَ أن تعشى عيناكَ عن نورِ خير البرية، وأسمى البشرية، مصباح الدجى، ونور الهدى، وسيد الورى، سيدي، وسيدك، وسيد الخلق طُرّاً، نبيِّنا محمّدٍ ﷺ.

فهو الذي بلغ قمةَ الكمـالِ البشريّ، وحاز رايةَ الـمجد الإنسانيّ، ووصلَ المقام الأسمى، ونال المنزلة العُليا، في كلّ ما يخطرُ ببالك ـ وما لا يخطُـرُ ـ من الفضائل والخصال، والمناقب والخِلال.

صلى الله عليه وعلى آله، صلاةً تُرضي بارئه تعالى، وتُرضيه إلى يوم الدين.

ومن نورِهِ صلى الله عليه الاقتباس، ومن مَعينِ فضله يَجري الفضلُ إلى الناس، ومن حازَ خيراً من الخلق، فبموافقة أبي القاسم حازه، ومن نالَ حُسناً فبمتابعة أبي الزهراء ناله، ومن حصّل بِـرّاً فباتباعِ جدّ الحَسنَينِ حصّله.

وكُثُـرٌ ـ بواسع فضل الله على هذه الأمة ـ همُ الذين استناروا فأناروا، واستمدّوا فأمدّوا، وبالتزامهم شرعةَ الدين الحنيف كانوا ينابيع فضلٍ وهداية، ومناهلَ رحمة وعونٍ للخلائق أجمعين، وَفَروا في أتباع الـمصطفى عليه الصلاة والسلامُ في كلّ عَصْـر، وجَـمُّوا ـ بفضل الله ـ في كلّ مِصْر، ووُجِدوا في كلّ جيل وأرض، فكانوا مناراتٍ لسواهم، ونَـبَارِسَ لغيرِهم.

وإني أستأذنُكَ ـ أيها الأخ القارئُ الـمبجّل ـ أن تقف معنا اليومَ على بابِ أحدِ عُظماءِ هذه الأمة، وأن تَمكُثَ قليلاً في رحابِ فردٍ من أعلامِها، وقمّةٍ شامخةٍ باسقةٍ من قِمَمِها.

إنّه الخليفة الزاهد العابد، التقيّ النقيّ، المؤمن الورع، العادل الفاضل، الحاكم الحازم، الصالح المصلح، داكُّ أسوار القسطنطينية، ورافعُ الأذان في عُقرِ دار الملّة الروميّـة، السلطان أبو الفتح محمد ابن مراد بن محمد بن بايزيد بن عثمـان، الشهير بِـ«محمد الفاتح» عليه رحمة الله.

وإنّا سنقفُ معه اليوم وقفتَين:

إحداهُما ـ وهي الأولى والقُصرى ـ مع ترجمةٍ له تُعرفكَ به، وتُطلِعُكَ على سيرته، وتُبيّنُ لك مواطن عظمته.

والثـانية ـ وهي الطُّـولى ـ مع روحه، وقلبـه، وعاطفتـه، ومشـاعره، وحسّـه، وحبّـه، وآلامه، وفيض قريـحته، ونتـاجِ شاعريّته...

إنها مع «ديوانه» الذي يخرُجُ إليكَ دُرّةً من صدَفِ الإهمال، وجوهرة من تُرابِ النسيان، صقلتْها أيـدٍ أحبّت هذه الشخصيّةَ وأُعجِبت بها، فأفاضتْ على هذا الديوان فيضَ عناية، ومزيدَ رعاية؛ ليخرُجَ عروساً مزدانةً بِحَلْـيِها، مُبهِجةً بوشْيِها، تُعجِبُ الناظرين، وتَسُرُّ المُطَّلِعين، وتسحر الـمُحبّين.

وإنها ـ وإن كانت للعبد الفقير كاتب هذه السطور جهودٌ مُضنيةٌ في إخراجِ هذه البديعة ـ فإنّ الفضلَ والثناءَ ـ بعدَ فضل الله تعالى والثناءِ عليه ـ لحادية الركب، وطليعةِ القوم، وباذلة المسعى الكبير؛ لإنجاح هذا العمل الأخت الفاضلة «روان الحلبي» بارك الله فيها، وزادَها خيراً وبِرّاً، وأفاضَ عليها هدايةً وتوفيقاً؛ فهي التي قدَحَت زنادَ هذه الشعلة الوضّاءة، وقدّمت ما يليق من الجهود البنّاءة، وما أنا على هذا الديوان إلا متطفّلٌ بعدَ إذنِها، فلها شكرُ أخيها كاتبِ هذه السطور وتقديره.

والحمد لله ربّ العالمين

* * *

السلطان محمد الفاتح

شخصيّتُه:

هو محمد بن مراد، سابع سلاطين الدولة العثمانية.

وُلِدَ في ٢٦ من رجب سنة ٨٣٣ هـ الموافق لـ ٢٠ من نيسان سنة ١٤٢٩م حيثُ كان العالم في تلك الفترة مشغولاً بفتوحات العثمانيين في أوروبا[١].

وقد تولّى الحُكم في ١٦ من شهر محرّم سنة ٨٥٥ هـ الموافق ١٨ من فبراير سنة ١٤٥١م، وهو في الثانية والعشرين من العمر!

ومحمدٌ الفاتح يُعَدُّ واحداً من قيادات المسلمين الذين باعوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله فنالوا الشهادة هانئين، وظل التاريخ حافظاً لهم أمجادَهم على مر السنين.

---

(١) «السلطان محمد الفاتح» د. عبد العزبز فهمي ص٣١، وثمة أقوال أخرى في تاريخ ولادته رحمه الله.

خضع السلطان محمدٌ لنظام تربوي صارم في بداية حياته تحت إشراف مجموعة من علماء عصره المعروفين، فتعلم القرآن الكريم، والحديث، والفقه، والعلوم العصرية كالفلك، والرياضيات، إلى جانب الدراسات العسكرية.

وكان السلطان محمدٌ يشترك في الحروب التي كان يشنُّها والده السلطان مراد الثاني ضدّ أوروبا، أو التي كان يصد فيها أعداءه.

كما درس اللغات الإسلامية الثلاث التي لم يكن يستغني عنها مثقفٌ عصريٌّ آنذاك، وهي: العربية والفارسية والتركية.

وحذقَ كذلك باللغات اللاتينية والإغريقية والسلافية، وبعضِ الإيطالية.

وكان لإقباله على هذه اللغات سببان:

ـ الاتصال المباشر برعيته من القوميات والشعوب المختلفة.

ـ الاطلاع على الآداب العالمية الآسيوية والأوربية.

وكان شديد الولع والاهتمام بالنهضة الفكرية والفنية في إيطاليا.

وكان كذلك يُجيد التصوير والرسم والعزف، وقد عَشِقَ الأدبَ، وأحبَّ الشعر، وله ديوان شعر بالتركية يسمى «مجلّة عوني»، هو هذا الذي بين يدي القارئ الفاضل.

وقد كان أيضاً واسعَ الاطلاع على التاريخ، وقرأ سِيَرَ الأبطال العظماء مثل: «أوغسطس»، و«قسطنطين الأكبر»، و«تيودوسيوس»، و«الإسكندر المقدوني»، و«تيمورلنك التتري».

وقد كان يُراسل كبارَ علماء عصره من المسلمين وغيرهم، ويُتحفُهُم بالهدايا السنيّة، وذلك مثل: «الملا عبد الرحمن الجامي» أحد أكبر شعراء إيران، و«الخواجه جهان» المتصوّف والفيلسوف الهندي.

وقد كان السلطان محمد الفاتح متين الإيمان، قويّ التديُّن، عظيم الالتزام بأحكام الشرع، وقد كان حريصاً غاية الحرص على صلاة الجماعة وندرَ أنَ أدّى صلاةً في غير مسجدٍ جامع.

إضافة إلى طهارة حياته الخاصّة، فلم يُعرَفْ بالترف في المعيشة، وكثرة التنعُّم في المطعَم، ولم يقرَبِ الخمرَ والفواحشَ التي تلطّخَ بها كثيرٌ غيره من الملوك والأمراء في كلّ عصرٍ ومصر.

محمدٌ الفاتح هو السلطان الوحيد من سلالة آل عثمان الذي قاد ٢٥ حرباً بنفسه في ظرف ٣٠ عاماً فقط، قضى خلالها على الدولة البيزنطية، أعتى الممالك في الزمن القديم.

لقدِ استطاع محمدٌ الفاتح أن يوسع رقعة أراضي دولته حتى بلغت (٢.٢٥ مليون كيلومتر مربع) قريباً، مع أن مساحتها كانت قرابةَ ٩٠٠ ألف كيلومتر مربع عندما اعتلى عرشَ السلطنة.

لقد فتح بلاد الصرب عام ١٤٥٩م، وفتح المورة عام ١٤٦٠م، وبلاد الأفلاق (رومانيا) عام ١٦٤٢م، وفتح بلاد ألبانيا عام ١٤٦٣م، تليها البوسنة والهرسك عام ١٤٦٥م.

وفي عهده دخلت الدولة العثمانية في حروب بحرية كثيرة منها ضمُّ الجزر اليونانية عام ١٤٧٨م.

ولا يُعَدُّ السلطان محمد الفاتح من أعظم سلاطين آل عثمان فحسب، بل يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي للإمبراطورية العثمانية؛ حيث وصل إلى درجة كان يُعتَبَر معها محورِ للسياسة العالمَية في عهده، وصاحب الكلمة الأولى في الشؤون الدولية،

حيث شملت علاقاته السياسية والعسكرية بلاد أوروبا وآسيا وأفريقيا ويُعتَبَر موطِّدَ السيادة الإسلامية في أوروبا، ومُهدِّدَ الأحلاف الصليبية.

وهو أول سلطان عثماني اشتهر عند الأوروبيين؛ حيثُ سُميَ «السيد العظيم» (Grand Seigneur)، وكان مجرّدُ سماع اسمِهِ يثير الرعب والهلع في قلوب أعدائه.

إن محمداً الفاتح ظل يحارب لمدة ١٦ عاماً متواصلة جيشاً صليبياً مكوَّناً من ٢٠ دولة، وقد احتشد هذا الجيش العرمرم بناء على الأوامر التي أصدرها بابا الفاتيكان «بيوس الثاني» عام ١٤٦٣م، حيث أعلن هذا البابا أنَّ كلَّ من يشارك في هذه الحرب من الصليبيين ضدَّ الدولة العثمانية، سيغفِرُ له الربُّ ذنوبَهُ لمدة ستة أشهر!

ولقد كان إضافةً إلى كلّ ذلك فقد حرص السلطان أشدّ الحرص بناء دولته بناءً متيناً أساسه إقامة الدين، وتحكيم الشريعة، وإرساء العدل، ورفع المظالم، ونشر المساواة، وإيصال الحقوق إلى أصحابها.

وقد اتخذ لذلك وسائلَ فريدةً عبر إصلاح النُّظُم الإدارية، والقضاء، وإنشاء الدواوين المختصّة، التي تماثل إلى حدٍّ كبير ما يُسمّى في زماننا بـ«الوزارات».

وسنَّ ما عُرفَ باسم «قانون نامه» الذي هو بمثابة دستورٍ ونظام حكم، قرّرَ فيه شيئاً من العقوبات والغرامات.

وقسّم الدولة إلى ولاياتٍ كُبرى وصغرى، وترك لبعض المناطق المفتوحة شيئاً من الحكم الذاتي.

ونظّم الجيش، وطلب من الولايات ـ بحسب قدرتها ـ أعداداً مدروسةً من الجنود والفرسان والأموال، وحرصَ على تجهيزه وتدريبه وإمداده بمستلزمات القوة من العَدد والعُدد، وقام بإعادة بناءِ الأسطول البحري وتزويده بما يحتاج من سفن وعتاد.

ولقد حرص على بسط الأمن، والقضاء على اللصوصية وقطع السبيل، وإشاعة الثقافة والتنوير، ونشر التعليم الديني والكونيّ، بافتتاح المدارس والتكايا، وتقسيم التعليم إلى مراحل تتدرّج فيها العلوم كمّاً ونوعاً.

وقد أشاع احترام العلماء وتوقيرهم واستشارتهم، وأمر بتكريم المبدعين من العلماء والأدباء والشعراء.

كما أولى اهتماماً كبيراً إلى العمران، وإنشاء البُنى التحتية من الجسور والطرق، وإشادة المساجد والمشافي والحمّامات والأسواق والقصور..

إنّ كونَ السلطان محمد الفاتح إدارياً بارعاً، وعسكريّاً عبقريّاً، جعل مجلة «صنداي تايمز» (SunDay Times) تختاره في عام ٢٠٠٤ ضمن أهم ٣٠ شخصية صنعوا تاريخ العالم، ومن المفارقات أنه كان المسلمَ الوحيد بين هؤلاء الثلاثين!

ترجمته في بعضِ كُتُبِ التواريخ الإسلامية:

أولاً: في موسوعة «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي ٩/ ٥١٦-٥١٧:

وفيها(١) سابعُ ملوك بن عثمان السلطان محمد بن السلطان مرادخان.

---

(١) أي: في سنة ٨٨٦ هـ.

ولد سنة خمس وثلاثين وثمان مئة، وولي السلطنة سنة ست وخمسين، وكانت مدة ولايته إحدى وثلاثين سنة.

قال في «الأعلام»: كان من أعاظم سلاطين بني عثمان، وهو الملك الضلّيل، الفاضل النبيل، العظيم الجليل، أعظم الملوك جهاداً، وأقواهم إقداماً واجتهادا، وأثبتهم جأشاً وفؤاداً، وأكثرهم توكُّلاً على الله واعتماداً، وهو الذي أسس ملك بني عثمان، وقنّن لهم قوانين صارت كالأطواق في أجياد الزمان، وله مناقب جميلة، ومزايا فاضلة جليلة، وآثار باقية في صفحات الليالي والأيام، ومآثر لا يمحوها تعاقب السنين والأعوام، وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والأصنام، من أعظمها أنه فتح القسطنطينية الكبرى، وساق إليها السفن تجري رخاءاً براً وبحراً، وهجم عليها بجنوده وأبطاله، وأقدم عليها بخيوله ورجاله، وحاصرها خمسين يوماً أشدَّ الحصار، وضيَّق على من فيها من الكفار الفجار، وسلَّ على أهلها سيف الله المسلول، وتدرَّع بدرع الله الحصين المسبول، ودقّ باب النصر والتأييد ولَجّ، ومن قرع باباً ولَجَّ ولَج، وثبت على متن الصبر إلى أن أتاه الله تعالى بالفرج، ونزلت عليه ملائكة الله

القريب الرقيب، بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب، ففتح اصطنبول في اليوم الحادي والخمسين من أيام محاصرته، وهو يوم الأربعاء العشرون من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمان مئة، وصلى في أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهي «أياصوفيا» وهي قبة تسامي قبة السماء، وتحاكي في الاستحكام قبب الأهرام، ولا وهت ولا وهنت كبراً ولا هرماً!

وقد أسس في اصطنبول للعلم أساساً راسخاً لا يخشى على شمسه الأفول، وبنى بها مدارس كالجفان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول، وقنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول، فجزاه الله خيراً عن الطلاب، ومنحه بها أجراً وأكبر ثواب، فإنه جعل لهم أيام الطلب ما يسدُّ فاقتهم، ويكون به من خُمار الفقر إفاقتهم، وجعل بعد ذلك مراتب يترقون إليها ويصعدون بالتمكن والاعتبار عليها إلى أن يصلوا إلى سعادة الدنيا، ويتوسلون بها أيضاً إلى سعادة العقبى، وأنه ـ رحمه الله تعالى ـ استجلبَ العلماء الكبار من أقصى الديار وأنعم إليهم، وعطف بإحسانه إليهم، كمولانا علي القوشجي، والفاضل الطوسي، والعالم الكوراني، وغيرهم من

علماء الإسلام، وفضلاء الأنام، فصارت اصطنبول بهم أم الدنيا، ومعدن الفخار والعليا، واجتمع فيها أهل الكمال من كل فنّ؛ فعلماؤها إلى الآن أعظم علماء الإسلام، وأهل حرفها أدقُّ الفُطَناء في الأنام، وأرباب دولتها هم أهل السعادة العظام، فللمرحوم المقدس قلادةُ مِنن لا تحصى في أعناق المسلمين، لا سيما العلماء الأكرمين. انتهى ملخصاً.

أي: واستقر بعده في المملكة ابنه الأكبر أبو يزيد يلدرم، ومعناه: البرق.

ثانياً: في «الضوء اللامع» للحافظ السخاوي ١٠/ ٤٧:

محمد بن مراد بك بن محمد بك بن با يزيد بن مراد بن أرخان ابن عثمان.

صاحب بلاد الروم الذي صار كرسي مملكته قسطنطينة بعد فتحه لها واقتلاعه إياها من الفرنج ويعرف كسلفه بابن عثمان.

استقر في المملكة بعد أبيه في سنة خمس وخمسين، وكان قد أوصى به خليلاً صاحب شماخي وأمر ابنه أن لا يخرج عنه، فكان ملكاً عظيماً اقتفى أثر أبيه في المثابرة على دفع الفرنج بحيث فاق

مع وصفه بمزاحمة العلماء ورغبته في لقائهم، وتعظيم من يرد عليه منهم وإهدائه في كل قليل للمحيوي الكافياجي مع مكاتباته الفائقة وانخفاضه عن أبيه في اللذات.

وله مآثرُ كثيرة من مدارس وزوايا وجوامع.

مات في أوائل سنة ست وثمانين في توجهه من إسطنبول لجهة برصا، وُدفن بالبرّيّة هناك، ثم حُوِّلَ إلى إسطنبول في ضريحٍ بالقرب من أجلِّ جوامعه بها، وجاء خبره في صفر كما اتفق في أبيه سواء.

وكان لما بلغه قتل الدوادار تحرك للخوف من التجري عليه وعدّى بحر إسطنبول ومشى قليلاً فأدركه أجله في الرحلة الثانية، واستقر بعده في المملكة ولده الأكبر أبو يزيد المعروف بـ«يلدرم» ومعناه «البرق» ويكنى به عن «الصاعقة»!

وورد ولده الآخر «جام» المقول له أيضاً: «جمجمة» على السلطان بالديار المصرية مغاضباً لأخيه، فحجّ ثم رجع وسافر، فأَسَرَهُ الفرنج، وتحرّك أخوه لذلك ـ فيما قيل ـ حتى كانت حوادثُ تلِفَ فيها أموالٌ ورجالٌ، والله تعالى يُحسن العاقبة.

ثالثاً: في «نظم العقيان في أعيان الأعيان» للحافظ السيوطي ص ١٧٣:

السلطان محمد الفاتح

محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد بن عثمان، السلطان محيي الدين ملك الروم وصاحب القسطنطينية وفاتحها.

ولد بعد الأربعين وثمان مئة، وولي السلطنة بعد موت أبيه سنة خمس وخمسين، ومات سنة ست وثمانين وثمان مئة.

قال الشيخ شهاب الدين الكوراني يمدحه من قصيدة أولها:

لمياءُ إذ سفرت عن ثغرها الشنبِ
سارت بلبي وأسرى بعده أدبي
فهذه حالتي بالعين تنظرها
القلب في صفدٍ والعين في حلبِ

ومنها:

فسرت مختفياً والدهر يتبعني
عساه ينصفني من ظلمها جلبي

سلطاننا الباهر الباهي لـه شرفٌ
يســمو عــلى البــدر والجــوزاء
محمد أنــت فخــر القــوم قاطبــةٍ
ســميت بــدر الســما مــن أنجــم

ومنها:

رياض مـدحك أزهـار مفتحـةٌ
صوَّت شِعريْ لها كالبلبل الطرِبِ
لك البقاء مدى الأيام فوق عـلى
وضدُّكَ الأبترُ المخذولُ في نصـبِ

فتح القسطنطينية:

في شــهر نيسان (أبريل) عام ١٤٥٣م حاصر العثمـانيون القسطنطينية براً وبحراً واشترك في الحصار ٢٠ ألفَ جنديٍّ على ٤٠٠ سفينةٍ، أما القوات البرية فقُدرَت بحوالي ٢٣٠ ألفَ جنديٍّ تساندهم آلاف المدافع وعشرات الألوف من البغال والبعير.

وعندما بدأ الجيش العثمـاني بوادر الحصار كان في مقدمته

السلطان محاطاً بالعُلماء والفقهاء، وعلى رأسهم الأشراف من آل بيت النبيِّ ﷺ يلتمس بهم البركة والنصر من الله تعالى.

وقد أبلى السلطان محمد بلاءاً حسناً في إدارة معركة دخول القسطنطينية.

فقد كان البيـزنطيون قد سدّوا مدخل ميناء القرن الذهبي بسلسلةٍ ضخمةٍ شديدة المنَعة، وقد حاولت البحرية العثمـانية كسرَها مرّاتٍ وفشلت.

استطاع السلطان بإدارته الفذّة تحقيق عملٍ أشبه ما يكون بمعجزةٍ، فقد نجح في نقل ٧٠ سفينةً من مرساها في «يشكطاش» البوسفور إلى القرن الذهبي وذلك بجرّها على اليابسة الـمملوءة بالتلال والمنحدرات في مسافةٍ هي نحوٌ من ٣ أميال، أي: قرابة ٥ كيلو مترات.

وقد أمر السلطان بتمهيد الأرض وتسويتها وفرشِها بألواح الخشبية المطليّة بالزيت والشحم، ثمّ جرّ السُّفُن بسلاسل تسحبها آلاف الثيران، وآلاف الجنود حتى وصلت البحر من الجهة المقابلة،

وقد تمّ كلُّ ذلك في ليلة واحدةٍ هي ليلة ٢٢ من نيسان (أبريل) ١٤٥٣م!!

في فجر يوم ١٨ من شهر أيار (مايو) ـ وبعد الصلاة مباشرة ـ اتّجه السلطان محمد الفاتح إلى مكان الهجوم، ومع دويّ المدافع الضخمة الذي بدأ مع الفجر، صدر الأمر السلطاني بإخراج العلم العثماني من محفظته إيذاناً ببدء الهجوم العام.

واستطاعت المدافع أثناء ذلك إحداث ثغرات في الأسوار التي تدفق منها الجند، ثم اجتاز الجنود العثمانيون الخنادق المحفورة حول القسطنطينية.

وفي ٢٧ من أيار (مايو) أمرَ السلطان محمد الفاتح رحمه الله جميعَ جنودِ جيشِه بالصيام تطهيراً لنفوسِهم، وتقويةً لعزائمهم وإرادتهم، وأمر بالإكثار من الصلاة، وذكر الله تعالى، والدعاء إليه.

وفي مساء هذا اليوم ليلة ٢٨ من أيار (مايو) أُوقِدَت النيران والمشاعل والقناديل، حتى إنّ الشموعَ رُفِعَت على رؤوس الرماح، فصدر نورٌ باهرٌ من الجيش العثماني الكثيف المحاصر للقسطنطينية،

وترافق ذلك مع صيحات التكبير، وقرع الطبول، والنفخ في الأبواق، وغناء الدراويش وتواثُبِهم...

ثُمّ أمر بإطفاء كلّ تلك الأنوار مع الصمت التّامِّ في منتصَفِ تلك الليلة، فغرق الجيش العثماني في ظلام دامس، وسكون مخيف؛ كان له على أهل القسطنطينية أثرٌ عظيم من الرعب والهلع!

واستمرّ الهدوء يومَ ٢٨ أيار (مايو) كاملاً، ثمّ في الساعة الواحدة من صباح يوم الثلاثاء ٢٩ من أيار (مايو) قُرِعَ الطبلُ التركيّ الضخم الشهير إيذاناً ببدءِ الهجوم الكاسح، وتشابكت مع قرعاته أصوات التكبير والتهليل، وبدأ الزحف.

وكانت معركةٌ مَهولة ختمت حصاراً عنيداً استمرّ ٥١ يوماً سقطت بعده المدينة تحت أقدام هذا الفاتح الذي كان له من العمر ٢٣ عاماً فحسب!

وقد قُتِلَ ملك الروم قسطنطين في أثناء المعارك، كما اندفع جنوده إلى المدينة نفسها، وساد الذعر بين البيزنطيين، وكان قد قُتِلَ منهم من قُتِل، وهرب منهم من استطاع إلى ذلك سبيلاً، وأسرع البعض نحو كنيسة آيا صوفيا.

ودخل الفاتح الـمدينةَ وسار إلى كنيسة «سانتا صوفيا»، وترجّل أمامَ بابِها، وانحنى ووضعَ حفنةً من التـراب على رأسه تواضعاً لله، وخضوعاً وشكراً له.

وما أن علم أهل المدينة بوصول السلطان إلى الكنيسة حتى خروا سجداً راكعين بين أنين وبكاء.

وتصرف محمد الفاتح تصـرُّفاً كان له أثـر كبيـر في عودة الـمهاجرين النصارى الذين كانوا قد فـرّوا من المدينة؛ فقد أمر السلطان جنده بعدم التعرض للشعب بأذى؛ وحفظ دماء النساء والأطفال والشيوخ، وأطلق سـراح الأسرى مقابل نظير مادي بسيط.

وإذ دخل الفاتح «سانتا صوفيا» أمر أحد المؤذّنين بصعود مذبحها، والتأذين فيه للصلاة، وأعلن تـحويلها إلى جامعٍ «آيا صوفيا» على أن تُصَلّى فيه أول جمعة بعد الفتح.

وقد أمر بعد ذلك بتنصيب بطريرك على نصارى المدينة وهو «جيناديوس»، وأنعم عليه برتبةِ «وزيرٍ» في دولته.

وقد ضمن بعد ذلك للنصارى من أهل «غلَطة» وغيرهم حريّة العبادة، وبقاء كنائسهم، وعدم المساس بِها، وحرية التجارة، والحماية من كلّ اعتداءٍ داخليٍّ أو خارجيّ.

كلُّ ذلك تأكيداً على سماحة الإسلام، ورُقيّ تعاليمه، وحُسن تعامله مع غير محاربيه من أبناء الديانات الأخرى، وخصوصاً أهل الكتاب.

وعلينا أن نقارن بين هذا الموقف وموقف البيزنطيين عندما هدمت حي المسلمين وأبادت سكانه عندما علم إمبراطورهم عن هزيمة العثمانيين أمام قوات تيمورلنك عام ١٤٠٢م. وهو بذلك وفى لأهل القسطنطينية بوعده الذي قطعه لهم في أوائل حصاره لمدينتهم عندما أرسل إليهم يقول:

«فليُسلِّم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية، وأقسم بأن جيشي لن يتعرَّضَ لأحدٍ في نفسه وماله وعرضه، ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمنٍ وسلام، ومن شاء رحلَ عنها وذهب حيثُ أراد في أمنٍ وسلامٍ أيضاً».

هذا رُغمَ أنه دخل المدينة فاتـحاً، ولم يدخُلها وقد سُلِّمَت إليه!

وحين أتي الفاتح رحمه الله برأس قسطنطين معفَّراً في التراب ساءَهُ أن يكون مصيرُ قائدٍ عظيمٍ هذا المصير، فأمر بتنظيفه، وأن يُدفَنَ بطريقةٍ تليقُ بمكانته.

ويذكرون أنّ السلطان محمداً الفاتح ـ الذي حقق بهذا الفتح واحداً من أعظم الانتصارات العسكرية في التاريخ ـ عاد بعد الفتح إلى مربّيه الشيخ «آق شمس الدين»، وعليه أَماراتُ الإعجاب بهذا النصر العظيم، فوجَّهَهُ شيخُهُ إلى مزيدٍ مما عُرفَ به من التواضع، وحذّره من مغبة الاغترار، ونبَّهَهُ إلى الابتعاد عن زهوة الانتصار.

استشهاده:

كان محمد الفاتح يمثل شوكة في خاصرة دول أوربا؛ مما جعلها تتحد ضدَّه، وتسعى إلى إطاحته بكل الوسائل، حتى إنه نجا من ١٤ محاولة اغتيال دبرها له أعداؤه الأوربيون.

إلا أن «الطبيب اليهودي يعقوب باشا» الذي كان يعمل ضمن فريق أطباء قصر السلطان استطاع أن يُنجز المحاولة الخامسة عشرة بنجاح؛ حيث دسَّ له السّمّ في طعامه، فلقي محمدٌ الفاتح حتفَهُ شهيداً ـ بإذن الله ـ يوم ٤ من ربيع الأول عام ٨٨٦هـ الموافق لـ ٣ من أيار (مايو) سنة ١٤٨١م عن عمر يناهز ٥٢ عاماً ميلادياً.

آنذاك أمر البابا بدقّ نواقيس جميع الكنائس لمدة ثلاثة أيام ابتهاجاً بموت السلطان العثماني العدوِّ الأول للبابا الذي بلغ رُعبُهُ منه أنه كان قد أعدَّ الخُططَ للفرار من «روما» في حال وقوعها ذات يومٍ في قبضة محمد الفاتح.

مات محمد الفاتح ولكن أعماله العظيمة لم تمت!

وكيف يموت من فتح القسطنطينية، وشيّد إمبراطورية إسلامية عظيمة وصلت بجنودها إلى أوروبا، ونشرت الإسلام فيها، وأقام العدل بين الرعية على اختلاف أديانِها وأجناسِها.

ويكفي فيه ما رُويَ عن الرسول الكريم ﷺ: «لتفتحنّ

القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»[١].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» برقم (١٨٩٥٧)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١١٧٧)، من حديث عبد الله بن بشر الخثعمي، عن أبيه بشرٍ الخثعميّ أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش».

قال: فدعاني مسلمة بن عبد الملك، فسألني، فحدّثتُهُ، فغزا القسطنطينية.

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم (٨٣٠٠) وصححه، ووافقه الذهبيّ، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢١٦)، وسمّيا الراويَ: عبد الله بن بشر الغنوي.

وأخرجه أيضاً أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١١٥٥)، والبخاري في «التاريخ الكبير» ٢/ ٨١، و«الصغير» ٢/ ٣٠٦ واسمُهُ ثمّةَ: عبيد بن بشر الغنوي.

وأخرجه أيضاً البخاري في «التاريخ الكبير» ٢/ ٨١، و«الصغير» ٢/ ٣٠٦ من حديث عبيد الله بن بشر الغنوي.

وهذا الاضطرابُ في تسمية الراوي مما يُضعِّفُ هذا الحديث؛ لأنه يجعله مجهولاً، إضافةً إلى أنّ في إسناده الوليد بن المغيرة المعافريّ لم يُوثّقه غير ابن حبّان.

ولكنّنا إذ نورد هذا الحديث ـ مع عدم الجزم بنسبته إلى النبيّ ﷺ ـ؛ نُذكِّرُ أنّ الحديث الضعيف حجّةٌ في الفضائل، والله أعلى وأعلم.

وصية السلطان محمد الفاتح رحمه الله لولده السلطان بايزيد:

«ها أنا ذا أموت، ولكنّي غير آسفٍ؛ لأني تاركٌ خلَفاً مثلك، كن عادلاً صالحاً رحيماً، وابسُطْ على الرعية حمايتك بدون تمييز، واعمل على نشر الدين الإسلاميّ؛ فإنّ هذا واجبُ الملوك على الأرض.

قدِّمِ الاهتمامَ بأمر الدين على كلّ شيء، ولا تفتُرْ في المواظبة عليه، ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمّون بأمر الدين، ولا يجتنبون الكبائر، وينغمسون في الفواحش، وجانِبِ البِدَعَ المُفسِدة، وباعِدِ الذين يُحرّضونك عليها.

وسِّعْ رقعةَ البلاد بالجهاد، واحرُسْ أموال بيت المال من أن تتبدّد.

إيّاك أن تمدّ يدَكَ إلى مال أحدٍ من رعيّتِكَ إلا بحقّ الإسلام، واضمَنْ للمُعوِزين قُوتَهم، وابذُل كرمكَ للمستحقّين.

وبما أنّ العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسد الدولة،

فعظِّمْ جانبَـهُم، وشجِّعهُم، وإذا سمعتَ بأحدٍ منهم في بلدٍ آخَرَ فاستقدِمْهُ إليك، وأكرِمْهُ بالمال.

حَذارِ حذارِ! لا يغُـرَّنَّكَ المالُ ولا الجند، وإيّاك أن تُبـعِدَ أهل الشريعة عن بابك، وإيّـاك أن تـميل إلى أيِّ عملٍ يُـخالفُ أحكامَ الشريعة؛ لأنّ الدينَ غايتُـنا، والـهدايةَ منهجُنا، وبذلك انتصرْنا.

خذ مني هذه العبرة:

حضرتُ هذه البلادَ كنملةٍ صغيرة، فأعطاني الله هذه النعم الجليلة!

فالزَمْ مَسلَـكي، واحذُ حذْوي، واعملْ على تعزيز الدين وتوقير أهله، ولا تصرِفْ أموال الدولة في ترفٍ أو لهو، أو أكثرَ من اللزوم؛ فإن ذلك من أعظمِ أسباب الهلاك».

* * *

شعر السلاطين العثمانيين

إن الفنّ والسلطنة لفظتان تقترن الواحدة بالأخرى، وهما أكثر الكلمات استخداماً جنباً إلى جنب على مدى التاريخ، فمنتسبو السلطنة كانوا يرون الفنانين عناصر دعائية لهم، فهم يروون ويعرّفون ما يقومون هم به من أعمال إلى جيلهم، بل إلى الأجيال القادمة فيخلدون بذلك أسماءهم.

ولهذا قاموا بفتح أبوابهم للفنانين والشعراء الذين سَعَوا إلى التقرُّب من أفراد السلطنة وإداريي الدولة وهم يطمحون لإيجاد بيئة ليطوروا فيها فنونهم في ظلها.

وهذه العلاقة نجد أروع أمثلتها في الدول الإسلامية المختلفة والتي توقفت المصادر كثيراً عندها.

غير أن ممارسة أفراد الأسر الحاكمة في الدول التركية ومن ضمنها الدولة العثمانية الفن والأدب وشيوعها بينهم هي بلا

شك لافتة للنظر، بل فاقت كل التوقعات؛ إذ نجد بين السلاطين وأمراء الأسر الحاكمة وبكثرة من مارسوا الفنون الأدبية المختلفة وعلى وجه الخصوص الشعر.

ومما يتعلق بالدولة العثمانية فقد أوردت المصادر المختلفة قصائدَ شعريةً للسلاطين العثمانيين بدءاً من الأمير عثمان مؤسِّسِ الإمارة العثمانية إلى السلطان محمد رشاد، فضلاً عن أبناء السلاطين وحتى بناتهم.

كما توقفت بعض المصادر عند شاعرية بعضهم بشكل مفصَّل.

وقد وصلتنا بعض الدواوين أو المجموعات الشعرية لبعض من هؤلاء السلاطين والأمراء، واشتهر بعضهم إلى درجة كبيرة؛ حتى قام مؤرخو الأدب بوضعهم في مصافّ الشعراء الكبار كالسلطان سليمان القانوني الذي اتخذ له مخلص «محبي»، والسلطان مراد الثالث ومخلصه «مرادي».

و«المخلص»: هو اللقب أو الاسم المستعار الذي اعتاد شعراء الترك والفرس استعماله في قصائدهم، وشاع وضعهم

هذا اللقب في البيت الأخير من كل قصيدة يكتبونها، وهذا الأمر أدى إلى معرفة أصحاب القصائد الواردة في الكتب والتي لم تذكر أسماء شعرائها.

والمعروف أن هؤلاء الشعراء اتبعوا أسلوب الأدب الديواني في شعرهم، وهذا الأسلوب الذي ترك بصماته على الأنواع الأدبية المختلفة في العصر العثماني هو نتاج الثقافة الإسلامية بروافدها العربية والفارسية والتركية، ولهذا ليس من المستغرب أن تشاع في الأدب التركي الأساليب والأنماط الأدبية السائدة في الأدبين العربي والفارسي من نثر وشعر، ويدخل سيل هائل من المفردات والتراكيب العربية والفارسية إلى اللغة التركية ما زال معظمها مستخدما في الوقت الراهن.

وكان هذا الأمر نتيجة طبيعية لاعتناق الأتراك الدين الإسلامي واحتضان العثمانيين شعوباً مختلفة في دولتهم وتأثر لغتهم بلغات هذه الشعوب.

أجمعت المصادر على أن أبناء الأسرة العثمانية الحاكمة كان يتم إعدادهم وتنشئتهم بدءاً من السنة الرابعة من أعمارهم، فيتم

في هذه السن تعليمهم قراءة القرآن الكريم، ثم العلوم الدينية المختلفة، كما كانوا يتعلمون اللغتين العربية والفارسية فضلاً عن لغة أو أكثر من اللغات الأوروبية، ويتلقون كذلك دروساً في علوم أخرى كالتاريخ، والجغرافيا، وفنون الحرب، وعلم الفلك، والرياضيات، والمنطق، والكيمياء، فضلاً عن تعلمهم الموسيقى، والصيد، والفروسية، والمصارعة، ويتولى تعليم كل ذلك كبار الشيوخ في عهودهم.

وكان الشعر والموسيقى يَحظَيان بأهمية كبيرة في القصور العثمانية، ويرعاهما السلاطين والأمراء بأنفسهم، فيشملون الشعراء برعاية خاصة، حتى إن الكثير منهم كانوا يتلقَّون رواتبَ من الدولة.

والحقيقة أن معظم السلاطين وأفراد الأسرة الحاكمة العثمانية قرضوا الشعر بشكل لا مثيل له في التاريخ.

ورغم ورود إشارات في المصادر عن ممارسة السلاطين الأوائل كتابة الشعر، فإن هذا الأمر ما زال ينظر إليه بعين الشك لعدم وصول مصادر عن تلك الفترة.

ولكن بدءاً من السلطان مراد الثاني (ت ١٤٥٢م) لدينا معلومات موثقة عن قرض السلاطين الشعر بشكل واسع، بل وصلتنا دواوين شعرية لِقِسمٍ منهم.

ويُعدُّ السلطان مراد الثاني أول سلطان عثماني يترك لنا قصائد مكتوبة، فتذكر المصادر أن هذا السلطان رعى العلوم والفنون حتى شهدت في عهده تطورات كبيرة في مجال الموسيقى والعلوم، وتُرجمت أمهات الكتب العربية والفارسية إلى اللغة العثمانية، وأحاط به كبار الشعراء في عهده، وبالغ هو في إكرام الشعراء حتى خصص رواتب شهرية لهم.

وبهذا يعتبر أول سلطان عثماني ينحو هذا المنحى.

وحذا حذوه ابنه محمد الفاتح (١٤٣٢-١٤٨١م) فاتح القسطنطينية، بل فاقه في إيلائه العناية والاهتمام بالشعراء، حتى شهد عهده تطورات ملموسة في مجال العلوم والخط والموسيقى والشعر، ويُروى أن ١٨٥ شاعراً كانوا يحيطون به.

وكان الفاتح يكتب شعره مستخدما مخلص «عوني»، وهو أول سلطانٍ شاعرٍ يصلنا ديوانه الشعري.

وتواصلت التـطورات التي شهدها عهد الفاتـح في عهد سلفه وابنه السلطان بايزيد الثاني (١٤٤٨-١٥١٢م) أيضاً، فقد قرض هو الآخر الشعر تحت مـخلص (عدلي) ثم جمع ما كتبه في ديوان، ويغلب على شعره أسلوب التـصوف، وفي عهده كان عشرات الشعراء يتلقون رواتب من الدولة، أغمرهم السلطان بحبه وعطفه.

ورغم قصر مدة حكم السـلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م)، فإنه فتح آفاقاً جديدة للدولة العثمـانية ووسع من حدودها، فبعد معركة جالديران التي توّجها بالانتصار الساحق على الصفويين استقدم مجموعة من العلمـاء والفنانين الإيرانيين إلى اسطنبول ساعياً بذلك الاستفادة من خبراتهم وكفاءاتهم.

وكان ضليعاً في اللغة الفارسية حتى كتب ديواناً بهذه اللغة، ويمتاز شعره التركي بالرومانسية واستخدم له مخلص «سليمي».

ويمتاز سلفه وابنه السلطان سليمـان القانوني (١٤٩٥-١٥٦٦م) بأنه أطول سلاطين الدولة حكماً، وازدهرت الدولة

في عهده من الناحيتين العلمية والثقافية، وترك بصماته على الأدب التركي بكتابته الشعر الديواني، واستخدم مخلص «محبي»، ويتكون ديوانه من ١٥٩٣٥ بيتاً.

ورغم أن الدولة العثمانية بلغت ذروتها في كل النواحي في عهد القانوني، فإنها بدأت تتوجه نحو الانحدار في هذا العهد أيضاً.

ولم يشمل هذا الانحدار الجانب السياسي بل انعكس على الجانب الثقافي أيضاً، فعندما تولى رستم باشا الصدارة العظمى (رئاسة الوزراء) قطع رواتب ١٥٤٤ شاعراً كانوا يتلقون رواتب من الدولة، مما أثّر تأثيراً سلبياً على الحركة الأدبية.

وتوالى بعد القانوني سلاطين شعراء اشتهر كل واحد منهم بالأسلوب الأدبي الذي أبدع فيه، ويأتي على رأس هذه الأساليب الشعر الصوفي.

ويعود السبب في شيوع هذا الأسلوب إلى أن معظم السلاطين نشؤوا في تحصيلهم الدراسي على آداب التكايا التي

تغلب عليها النزعة الصوفية وتأثروا بها كثيراً، ونشأت إثر ذلك علاقة قوية بينهم وبين منتسبي التكايا؛ حتى انتسب بعضهم إلى الطرق الدينية الصوفية.

ويمكننا القول بعد كل ذلك:

إن اهتمام السلاطين العثمانيين بالشعر رافقته العناية بالشعراء؛ فازدهر الشعر كثيراً في عهودهم، واشتهر بينهم شعراء خلدوا أسماءهم بكتابة أروع نتاجات الأدب التركي.

* * *

«ديوان عوني»

للسلطان محمد الفاتح رحمه الله

ذكَـرَ هذا الديوانَ للسلطان محمدٍ الفاتحِ رحمه الله العلّامةُ إسماعيل باشا البغدادي في موسوعته «إيضاح المكنون» ١/ ٥٢٠ بقوله:

ديوان عوني ـ تركي: هو أبو الفـتح السلطان محمد خان، ابن السلطان مراد خان الثاني، ابن السلطان محمد خان العثماني، الشهير بالفاتح، المتوفى سنة ٨٨٦ ستٍّ وثمانين وثمان مئـة. أوله: يوزك مه عيد وسر زلفك شب إسرى... إلخ. ا. هـ.

قلت:

وقد طُبع هذا الديوان في تركيا بالحروف اللاتينـية سنـة ١٩٤٤م تحت عنوان «ديوان الفاتح» (Fatih Divani).

منهجُ العمل في تعريب الديوان:

أصلُ هذا الديوانِ مكتوبٌ باللغة العثمانية القديمة المكتوبة بالأبجدية العربية، ثُمّ صار بالأحرُفِ اللاتينية؛ كما سلف.

وقد قَفَوتُ في إخراجِهِ سبيلَ عددٍ وفيرٍ من دواوين الشعراء الأعاجم الذين أعادَتْ سبْكَ أشعارِهم أقلامُ شُعراءِ عَرَبٍ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ونظَمَتْها على بحور الشعر العربيّ الأصيلة، بعد أن كسَتها حُللاً، وأفاضت عليها أساليبَ جعلتها متناسقةً مع القريض العربيّ.

من أمثلة ذلك: «رباعيات الخيام»، و«دواوين» محمد إقبال[١]، وغير ذلك.

---

(١) وهذه قائمة بدواوين الشاعر الفذّ محمد إقبال رحمه الله:

الديوان	صاغه شعراً
ديوان صلصلة الجرس	الشيخ صاوي شعلان المصري
الأسرار والرموز	د. عبد الوهاب عزام
رسالة المشرق	د. عبد الوهاب عزام
زبور العجم	د. حسين مجيب المصري
جناح جبريل	زهير ظاظا
ضرب الكليم	د. عبد الوهاب عزام

=

ولقد شاءَ الله تباركَ وتعالى أن يُـناطَ بي تعريبُ «ديوان» السلطان أبي الفتح محمدٍ الفاتح منظوماً، فقبلتُ شاكراً، واستعنتُ بمن لا مستعان به إلا هو، ولا مُتّـكلَ عليه غيره.

وإنني أحببتُ أن أُطلعَ القارئَ الكريم على الـمنهج التي اتّبعتُهُ في نظمِ هذا الديوان؛ ليكون على بيّنةٍ من الطريقة التي صار بها إلى ما يقرؤه، والكيفية التي تحوّل بها إلى ما يطّلعُ عليه.

وهذ هي أبـرزُ ملامحه:

١ ـ المحافظة ـ قدْرَ الإمكان ـ على شخصية السلطان محمّد الفاتح رحمه الله في هذا الديوان، والإبقاءُ ـ ما استطعتُ ـ على تعابيره، وصُوَرِهِ، وحتى ألفاظه...

كلّ ذلك؛ ليكون الشاعرُ الذي تقرأ ـ أيها القارئ الكريم ـ أشعارَهُ هو محمداً الفاتحَ نفْسَه، وليس مُعرِّبَ ديوانه!

وعليه؛ فإني لم أتصرّف إلا بما فيه تبيانٌ للمعنى الذي يسوقُهُ مُجمَلاً، وبما يخدمُ الصَّوغَ على البحور الشعرية المألوفة.

=

رسالة الخلود	د. حسين مجيب المصري
والآن ماذا نضيع يا أمم الشرق	الشيخ صاوي شعلان المصري
هدية الحجار	الشيخ صاوي شعلان المصري

وكان تدخُّلي في المعاني يُشبِهُ الكُحلَ الذي تُـكحَلُ به العيون النَّجلاء، والخضابَ الذي تُخضَبُ به الأناملُ الرقيقة...

وإنّ الفضلَ في الجمالِ يعُودُ إلى الأصل، فلا يُوجِدُ الكُحل حُسناً في عينٍ شوهاء، ولا يصنع الخضابُ سِحراً للأنامل الشَّثْنَة!

ولقدِ ابتـغيتُ تقديمَ هذا الديوانِ أجملَ ما يكون، مُبـتعِداً ما استطعتُ عن التكلُّفِ، محافظاً جهدي على حرارة العاطفة، وحرصتُ قبل النظم أن أعيشَ جوّ ومعاني القصيدة التي أقِفَ في رحابِها؛ كي آتِيَكَ ـ أيها القارئُ الفاضلُ ـ بالسلطان نفسِهِ ليُكلِّمَكَ بالعربية، ويُسمِعَكَ شِعرَهُ المنظوم على بِحار الخليل.

٢ ـ بِما أنّ كلَّ واحدٍ من أبيات القصيدة الواحدة يَمتاز بالاستقلال عن الأبيات الأخرى فيها؛ فإني اخترتُ ـ لأجل ما سبق ـ أن يكون نظمُ كلِّ بيتٍ من الأصلِ على حدةٍ، وذلك على شكل بيتين أو ثلاثة أبياتٍ عربية(١)، لها حرفُ رويٍّ واحد(٢).

---

(١) بيتان أو ثلاثةٌ، وقليلاً جدّاً أربعة؛ بحسب طول البيتِ في الأصل، وكثرة صُوَرِهِ، وما إلى ذلك...

(٢) وقد جرّبتُ صوغَ قصيدتين من هذا الديوان على شكل قصيدةٍ طويلةٍ لها =

ولكي يبقى القارئ في جوٍّ موسيقيٍّ متناسقٍ نظمْتُ أبياتَ كلّ قصيدةٍ من الأصل على بحرٍ واحدٍ لا يختلفُ باختلاف أحرُفِ الرويّ بين الثنائيات، أو الثلاثيات.

٣ ـ التقديم ـ كما سلفَ ـ بدراسة موجَزةٍ عن شخصية السلطان محمد الفاتح رحمه الله، وعن شعر السلاطين العثمانيين، وتعريفاً بهذا الديوان.

٤ ـ إلقاءُ نظراتٍ على هذا الديوان، تُسلّطُ عليه بعضَ الأضواء، وتكشفُ فيه بعضَ المزايا؛ مما يُتيحُ للقارئ الفاضل مزيداً من القدرة على تناوله، وسبر أغواره، وفهم مضمونه.

أسأل الله تعالى بِمنّه وكرمه أن يَحبوَنِي التوفيق، ويُلهمني الصواب، وينفعَ بما نظمتُ وكتبتُ، ويكتُبَ لهذا العمل القَبول، إنه خير مطلوبٍ منه ومسؤول.

* * *

= وزنٌ وحرفُ رويٍّ واحد؛ فوجدتُني أبتعدُ كثيراً عن الأصل الذي صرّحتُ به من وجوب الإبقاء على شخصية شاعرنا في هذا التعريب.

نظراتٌ في هذا الديوان

اللون العام لـجُلّ هذا الديوان هو الغزل، وفيه وصفُ ألم النوى، وتباريح الوجد والجوى، وهذا من الموضوعات المحبَّبة إلى كلّ نفسٍ، خصوصاً أنها تخلو من الفُحش الذي يُؤذي الشُّرفاء، ويُمضُّ نفوس الظُّرفاء.

إنّ القارئ الذي يسرَحُ في هذا الديوان اللطيف، يَرى بكلّ جلاءٍ أنّ هذه القصائدَ انفعالاتُ نفسٍ تمرُّ في تجربةٍ عاطفيّةٍ، وثورة غرامية، استعرت نارُها في فؤادِ شاعرنا الرقيق الرهيف.

وترسُمُ قصائدُهُ لنا صورة قضيّتِه، إنها قضية شابٍّ عاشق، وقع في حبّ فتاةٍ جميلة.

وتتضّحُ ملامحُ قصّته شيئاً فشيئاً... إنه السلطان الشابُّ الـمفعَم بالحيوية والفتوّة، المؤمنُ المعروف بالعفة، مع فتاةٍ روميةٍ أوربيّـة نصـرانية، بارعة الجمـال، ساحرة الحسن، اسمُـها ـ أو

اسمُها المستعار ـ «ويس»، وهي من محلة «غلاطة» المقابلة لمدينة «إسطنبول».

زِدْ على ذلك أنها تمتاز ـ كما قال لنا ـ بأنها طويلةٌ، ممشوقة القدّ، رشيقة القوام، بيضاء، سوداء الشعر، طويلتُهُ، تلعبُ الريح بخصائله، فيلعب الوجد بقلب السلطان.

والأغلبُ ـ والله أعلم ـ أنّ الفاتحَ وقعَ في شَرَكِ هوى تلك الفاتنة بُعَيد فتحِ القسطنطينية، ونتذكّرُ أنّ عمره كان حينئذٍ أربعةً وعشرين عاماً فحسبُ!

وبفتح القسطنطينية تـمّت للسلطان السيطرة على غلاطة، البلدة النصرانية المقابلة، التي لم يكن له من سُلطةٍ عليها قبل الفتح.

وبعدهُ صارِ للسلطان اتصالٌ ما بهذه البلدة وأهلِها، أو كان لبعضِهم اتصالٌ به، فرأى تلك الجميلة فهام بها قلبه، وأُغرِم بها فؤادُه.

والذي تُبيّـنه القصائدُ أنه لم يستـطِعْ قـطُّ أن يصِلَ إليها بالزواج، وأنه عانى الأمرّين لأجلِ ذلك، فلعلّها كانت من سوقـة

الناس وعامّتهم، فحال الوضع الاجتماعيُّ بينهما!

ويذكُرُ لنا أنها تزوّجت، وقد صرّح في القصيدة السادسة والعشرين بأنها سلّمت شفاهها لغيره، ورمزَ في القصيدة الثامنة والعشرين للذي تزوّجها بالصنوبرة، وهي التي شبهها غير ما مرة بالسروة، وكأنهُ يصفُ زوجَها بالطول والضخامة!

ويبدو للقارئ أنه لم يستطع نسيانَها، وأنّ أملاً بالاجتماعِ بها حليلةً كان لا يزال يُراودُهُ حيناً بعد حين.

هذا الذي بدا لي ـ والله أعلى وأعلم ـ من تحليل أشعار هذا الديوان، وهو استنتاجٌ لا وهنَ فيه؛ إذ إنّ القصائد تشهدُ له شهادةَ عدل.

وإن كان لا يبطُلُ بالكلّيّةِ ظنٌّ واهنٌ بأنّ الديوان في جملته إنما هو من قبيل الشعر الصوفي الذي يُرمزُ فيه إلى الحب الإلهي بالحب البشري، ويُكنى فيه عن الرموز الدينية بذِكر ليلى وعزّة وبثينة...!

وأنا لا أجزمُ ببطلان هذا التعليل، لكنني أرجّحُ الأولَ؛ للأسباب التي ذكرتُ، وأزيد عليها:

إن المطّلعَ على الشعر الصوفيّ الرمزي كالذي تجده في دواوين ابن عربي، وابن الفارض، والشيخ عبد الغني النابلسي، وغيرهم... يجدُ الرموز والمجازاتِ المُشارَ إليها، ولكن...

ليس من المألوف أن يتمحورَ الديوان كلُّه، والقصائدُ جميعُها على رمزٍ بعينِه، وطِلّسمٍ بذاتِه، بل تُستَعمَلُ الـمُوهِماتُ المبهماتُ بأسماءٍ وأوصافٍ مختلفةٍ أشدّ الاختلاف، ومتباينةٍ أكبر التبايُن!

أما سلطاننا، فهو يرسم لك صورة واحدة، بملامحَ محدّدَةٍ كالتي نعتُّ لك، بل هو يسمي بلدتها مراراً، ويُصرّحُ باسمِها في أحدِ المواضِع، ولو كان رمزاً ـ مع الاحتمال ـ لعدّد الرموز ـ وأكثر من الأسماء بقصد المغالَطة.

بل إنه صرّح جهاراً بأنها لا بد أن تقبله زوجاً ذات يوم، وهذا ليس مألوفاً في الشعر الصوفي الرمزي، ولا يُمكنُ أن يكون أراد الذات الإلهية، أو الشخصية النبوية، أو الكعبة الشريفة، أو الجنة المنشودة...

ثمّ إنه لا تنافي بين ما عُرِفَ به الفاتح من التديُّن والتقوى، والتمسُّكِ بالأحكام الشرعية، وبين عشقِهِ وغزله!

نعم، ولا غضاضةَ في ذلك؛ من الناحية الشرعية؛ لأن العاطفةَ لا جُناحَ فيها ما تَقُـدِ المرءَ إلى انحرافٍ في السلوك يَجلب له المآثم، ولم يُحرِّمِ الإسلامُ الحبَّ الشريف العفيفَ المقصودَ منه النكاح؛ لأنّ هذا التحريم تكليفٌ للإنسان بما لا طاقةَ له به، وهو ممتنعٌ نقلاً وعقلاً[١].

ولا نعني الحبّ بالمتعارَفِ اليومَ من الاختلاط المبتذل، والتهاون في حدود الاحتشام الشرعيّ، بل هو الذي يطرأ على المرء على حين غرة منه، بالنظرة الأولى ونحوِها، ثم يلجمه الإنسان ما استطاعَ عن الوقوعِ في أيٍّ من المحرمات.

---

(١) والدليل على قولنا ما أخرجه ابن ماجه في «سننه» برقم (١٨٤٧) والحاكم في «مستدركه» برقم (٢٦٧٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يُرَ للمتحابين مثل النكاح»، فهو ﷺ لم يُنْكِرْ وجدَ الحبّ؛ لأنه شعور إنسانيٌّ يُمكن أن يكون نبيلاً شريفاً عفيفاً، بل أرشد عليه الصلاة والسلام إلى علاجه العلاجَ الذي يُنظمه ويجعله حلالاً بالجملة، ألا وهو الزواج.

أُؤكِّـدُ هذا؛ لكي لا يتوهَّم البعضُ تعارضاً وتـناقضاً بين سيل الغزل الجارف في هذا الديوان، والأرضية الدينية الإيمانية في شخصية وثقافة محمد الفاتح رحمه الله.

وما دمنا عند الشخصية الدينية للسلطان، فإنني أذكر أنّ لها طيفاً يُلمَحُ في مواضعَ عديدةٍ من هذا الديوان، لكنّها تندفعُ وبشكلٍ بركانيٍّ مفاجئٍ في القصيدة الثامنة هذا الديوان، وتظهر بدرجةٍ أقلّ في القصيدة السادسة منه!

وقد تبرُزُ جليّةً في بيتٍ ما، أو تعبيرٍ ما يأتي به على سبيل تعزية نفسِه، وتسلية مصابه.

وإذا أردنا أن نقفَ وقفةً عند ألفاظ شاعرنا في ديوانه هذا، فإننا نلمح فيها ـ مع عدم عربيّتها ـ الرقةَ والعذوبة، والمعانيَ الرائقةَ المتناسبةَ مع مقاصدِ كتابته، ودواعي شعره.

ونفس الصفات تبدو بيّـنةً في صوره وتعابيره المتمـاشية مع معاني الحب، والشوق، وألم البعد، ودلال المحبوبة وتمنُّعها، ووصف جمالها الأخّاذ، وما إلى ذلك.

وتتجلّى التقليدية (الكلاسيكية) في ألفاظه وصوره، وهي لصدقِها لا تُفقِدُ أشعاره حرارتها، ولا توقُّد عواطفها.... فهو قد يشبِّه حبيبته بالقمر، أو الشمس، أو الوردة، وقوامها بالسروة، وشفاهها بالعقيق، وبالشهد، وألمه بالنار، وضعفه بدنوّ الموت، ونحوِ ذلك.

مع الخلوّ من الإسفاف والابتذال والفحش في وصف المفاتن، وغاية ما قد يذكُرُهُ ـ على قلّةٍ ـ قُبلةُ المَبسم، وشهدُ الشفاه، ونحو ذلك، وهو محمولٌ على التخيُّل والتمنّي والظّنّ؛ مما يليق بشاعرنا، وينسجم مع مع عُرِفَ به من تديُّن.

وأمّا العاطفةُ في «مجلة عوني» فهي جيّاشةٌ وقّادةٌ لا بُرودَ فيها، ولا تكلُّفَ ولا تصنُّع، تشهد لذلك الصور المرسومة بريشةِ مُبدِعٍ حاضرِ القلب، يُعاني كلّ ما يقوله، ويشعر بجميع ما يتحدّثُ عنه؛ على الرغم مما ذكرتُ من اعتياديةٍ في جلّ الصور، وأغلب التعبيرات، وأكثر الكلمات.

بعد ذلك كلِّه....

هذا الذي بين يديكَ ـ أيها القارئ الكريمُ ـ ديوان «مجلة عوني» للسلطان المبجّل التقيّ محمد بن مراد العثماني، قاهر الروم، وفاتح القسطنطينية رحمه الله تعالى.

أضعُهُ تحتَ نظرِ الراغب،وبين يدَي الطالب، ومن أجلِ تقديمِهِ مخدوماً الخدمةَ اللائقة، شمّرتُ عن ساعد الجدّ، وبذلتُ وافرَ الجهد، فأسهرتُ لذلك الليالي، وأضنيتُ فكري وبالي.

فإن أصبتُ وأحسنتُ؛ فالفضل لله سبحانه مُبتَدَأً ومُختَتَماً، ومنه التوفيق، وبيده التمام والتحقيق.

وإن كان غير ذلك؛ فمن قصوري ونقصي، ومما جنتْهُ يداي، وأسأل اللهَ على ذلك أن يجودَ بالغفر، ويحبوَني بالصفح، وأرجو ممن يطّلِعُ على زلّةٍ أو خَطأة أن يتفضَّل بالعذر، ويتكرّم بالنُّصح.

وأما عملي في كتابي هذا، فيصحُّ فيه وفي غيره ما كتبه القاضي عبد الرحيم البيساني، إلى العماد الأصبهاني، معتذراً عن كلامٍ استدركه عليه:

«إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسانٌ كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لَكان أحسَن، ولو زِيْدَ هذا لَكان يُستحسَن، ولو قُدِّمَ هذا لَكان أفضل، ولو تُرِكَ هذا لَكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، ودليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر»[١].

والله أعلم، وصلى الله على سيدنا وشفيعنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم

غوطة دمشق الميمونة ـ بلدة المليحة

الاثنين ١٥/ ٨/ ١٤٢٩هـ

١٨/ ٨/ ٢٠٠٨م

علي محمد زينو

ماجستير في الحديث الشريف وعلومه

إجازة في اللغة العربية والدراسات الإسلامية

---

(١) «كشف الظنون» لحاجي خليفة ١/ ١٨، و«أبجد العلوم» لصدّيق حسن خان القنوجي ١/ ٧١.

نبضات قلب مرهف

ديوان السلطان محمد الفاتح

٨٣٣ - ٨٨٦هـ
رحمه الله تعالى

المسمى ديوان عوني

عربه نظماً وقدم له
علي محمد زينو

أروقة
للدراسات والنشر

القصيدة الأولى

مُحيّاكِ يأتــي بالسُّــرورِ لنـاظري
كَمِثْلِ هِــلالِ العيــدِ للمترقِّــبِ
وشَعرُكِ ليلٌ غــامضٌ ذو مهابـةٍ
حكى ليلةَ الإسراءِ في بُعدِ مَطلَبِ

***

كما حيَّرَتْ سبْعٌ لِموسـى أتـى بِهـا
فقد حيّرَ العُشّـاقَ طَرْفُكِ غامِـزا
وإن كان أحيا الميّتـينَ ابـنُ مـريَمٍ
ففي شَفَتَيكِ الرّوحُ للصَّبِّ عاجِــزا

***

جمـالُكِ هـذا مِـنْ يَــدِ الله مِنحـةٌ
جمـــالٌ إلـــهيٌّ، عطيّـــةُ منّـــانِ

جمـالٌ بديعٌ لـــم تُصـوِّرْ شبيهَــهُ
يدا المُبدِعِ الرسّام، حتى يدا «ماني»[١]

***

ولَمْ أرَ في الدُّنيا كَوَجهـكِ حُسـنُهُ
كما القمَرِ الوضّـاح في ليلــةِ البـدْرِ
ولَمْ تَــرَ عينـي مثلَهـا قــطُّ فِتنـةً
هي السِّحرُ حقّاً، أو أشدُّ من السّحْرِ

***

حبيبةَ قلبـي، إنّنــي ذُقْـتُ راضياً
لأجلِكِ في دُنيــايَ آلامَ حَسرتـــي
وقد أصبحَتْ في لُجِّ بَحـرِ محبّتـي
لـــكِ كـلُّ آلامــي مُجــرَّدُ قَـــطرةِ

***

---

(١) ماني (٢١٥ – ٢٧٦ م): مؤسس مذهب المانوية القائل بمبدأين: مبدأ الخير، ومبدأ الشرّ، النور والظلام، وإليه مرجع اليزيدية.
أدخلَ ماني في التصوير الفارسي نسَقَ التصوير الصينيّ، ورسم الملائكة والشياطين. «المنجد في الأعلام» ص ٦٣١.

تغزّلَ «عوني» في الـمُحيّا وكَمْ لَـهُ
قصائِــدُ عنـهُ في الــهوى تتكلَّــمُ
وكم قال: إنّ الوجهَ شمسٌ، وقد
ـ إذا أشرَقَتْ ـ معنىً بِـهِ ليس يُفهَمُ

*　*　*

القصيدة الثانية

لو بكى العاشقُ الفِـراقَ دُموعـا
أو بكى مِـن دونِ الـدُّموعِ نَجيعـا
لم يكُـنْ لَـوْمُ مَـن يلومُـهُ حقّـاً
أهْـوَ يومـاً ذاقَ الفـراقَ وجيعـا

***

صـدُّ مـحبوبِيْ كَارْتِقَـا الأطْـوادِ
مُلـبِسٌ ثـوبَ حسـرةٍ لِـفُؤادي
تـارِكٌ قلبـيْ أشـعثاً رثَّ حـالٍ
وجهُـهُ اغْبَـرَّ بالـجَفاءِ البـادي
فـإذا جـاد بالوِصـال كـأنّي
خـالعٌ ثوبَ حسرتـي في الـوادي

***

يَجِـبُ البَـوحُ بالـمحبّةِ مهـما
سـينالُ الـمُحبَّ مِـن إيـذاءِ

وعــــلى حــالِــــهِ إذا في ازدراءٍ
ضحِكَ النّاسُ؛ فَلْـيَزِدْ فـي البُكـاءِ

* * *

أيُّها العاشقُ الشّجِــيْ كـلَّ يــوم
هِـمْ بصَحْراواتِ الأسى والـهُموم
واحْبِسِ الـنَّفْسَ في غَيَــابَةِ جُـبٍّ
وَابْـكِ لـيلاً مـن الفِـراقِ الأليـم

* * *

ما لـدى العـاشِقِ الـجَسارةُ كـلّا
لِيُرى لِلمحبوبِ بـالـحُبّ أعْــلَنْ
رُغْـمَ أنّ الـحشا بِـهِ سكنَـتْ أسْـ
ـهُمُ غَمْـزاتِـها الـتـي لَــهُ تَطْعَــنْ

* * *

مــا لآلام العِـــشقِ قـــطُّ دواءٌ
إنّــهُ الــموتُ، أوْ وَسـيلةُ قَـتْــلِ

غَيـرَ أنْ تَرحَمَ الـمُحبَّ التي قـد
سَرَقَــتْ قلــبَهُ بلحظَــةِ وَصْــلِ

* * *

لو أَتَوا بالتِّيْجان يوماً لِـ «عـوني»
وبِكُـلّ العُــرُوشِ كــي يَعتَــليْها
ليس يــوماً بتــاركٍ لَــكِ عِشْـقاً
أبــداً، أو محلّــةً أنــتِ فيــها

* * *

القصيدة الثالثة

وإذْ تَسْري مِـنَ الـمَحبوبِ رُوْحٌ
زهــا الــرَّوضُ بأزهـــارٍ وَوَرْدِ
فــإنْ نظَــرَتْ أزاهِــرَهُ عيونــي
فرؤيــة حُسنِــهِ ـ والله ـ قَـصْــدي

***

هــي الدُّنيا عَلَــيَّ أبَـتْ وُصُـولاً
إلــى لُــقْيا الحبيـبِ فـأدْهَشَتْنــي
أليســت غــاية الـدُّنيا وعَــيْشي
بِــها لِــلُقَى الأحبَّـةِ قــد سَبَتْنــي

***

وسُحبُ الغيـثِ في جَـوِّ السّـماءِ
لَتأتــيْ مِـن أنينــي وانتِحـابــي

تُبخِّــرُ أدمُــعي نيــرانُ قلــبٍ
بــهِ للوجْــدِ ألسِنَــةُ الــتِهابِ
كأنــهُ قـد أُريــدَ لِــدَمع عينــي
مِساسُ النَّجْم يلمَـعُ والشِّهــابِ

***

إذا الأجَـلُ المُقـدَّرُ جـاءَ كُـلٌّ
لــهُمْ صُلْــحٌ ويَـنْفضُّ النِّــزاعُ
فـإنْ تَكُنِ النهايـةُ سـوف تأتــي
بصـفْح هــكذا، فِيْمَ الصِّــراعُ؟

***

حَـذَارِ مِـنَ التَّفَــوُّهِ فــي قَصيدٍ
ســتنظُمُ مــرَّةً بِاسْــم الـمُنافِــسْ
فـإنَّ النّـاس ـ يا «عـوني» ـ جميعاً
لقد عَلِموا، وقـالوا في الــمَجالِسْ
بأنَّـكَ تكتُـبُ الأشعــارَ وَصْـفاً
لِحُسـن حبيبِـكَ الآبــي المُشـاكِسْ

القصيدة الرابعة

تــأبى الحبيبــةُ مــا تُدلِّــلُها بــهِ
وتصُـــدُّ منــكَ تقَــرُّباً وتَــزَلُّفا
خطَفَت فؤادَكَ بـالجمالِ وبالصِّـبا
وأبَـتْ عليـكَ فُــؤادَها أن تَخطَفـا

***

خيــرُ الكــلام أقلُّــهُ وأدلُّــهُ
يأتــي بــهِ المرْءُ اللبيـبُ العاقِــلُ
وَطَويلُ شَعْرِكِ فيه ألـفُ دلالــةٍ
أوحى بِها الحُسنُ البـديعُ الكامــلُ
فكـأنــهُ مَثَـلٌ رصيــنٌ قالَــهُ
ذو حِكمــةٍ، وبِــهِ تَمَثَّـلَ قـائــلُ

***

سرقَتْ فؤادي منكِ غمـزَةُ نـاظرٍ
وخَصائلٌ مـن شَـعْرِكِ الـمُتطايِـرِ
ويُفتِّشون عــن الفـؤادِ مدينتــي
يَمشــون بـين أزقّــةٍ ومَعـابِـرِ
فَهَلِ اسْـتلَبْتِ مـدينَتي وسرَقتِهـا
أيضـاً بذيّـاكِ الجـمالِ السّاحِـرِ؟

* * *

قـال الـمُجرِّبُ والـمُجرِّبُ قبلَهُ
قــولاً يُكــرِّرُهُ أولـو الأحــلامِ:
ثَمَنُ اللِّقـاءِ مــعَ الأحبَّـةِ دَفْــعُهُ
فَـرْضٌ، أوِ اللُّقيـا مـن الأوهــامِ:
نَفْـسٌ تُقــدَّمُ فِديَــةً، ومدامــعٌ
تَجـري، وقلــبٌ مُلْــهَبٌ بِضِــرامِ

* * *

وكأنَّ شَعْرَكِ بَـدرُ تِـمٍّ زاهـرٌ
ولـهُ شُعـاعٌ واصـلٌ للـقلبِ[١]
فأنـارَ أرجـاءَ الفـؤادِ بنُـورِهِ
وأضاءَ للوَلْـهانِ داجـي الـدَّرْبِ
والآخَرونَ يلُفُّهُمْ هـلَعُ الأسـى
في حِندِسِ اللّيلِ الفظيـعِ الكـرْبِ

***

إنّ الذين يَـرَونَ شَعْرَكِ أصـبَحوا
فِئَتَـيْنِ: مِـن مُهتمّـةٍ، ومُتَيَّمَـهْ
أمّـا الأُلـى لَهُـمُ اهتِمـامٌ عابـرٌ
فَلَهُـمْ مَنامٌ فـي الليالـي المُظلِمَـهْ
والعاشـقونَ لَـهُ أجَنَّهُـمُ سُـها
دُ اللّـيلِ؛ إذْ فُرُشُ الـرُّقـادِ مُحَرَّمَـهْ

***

---

(١) بدرُ تِمٍّ: بدر تمام.

أوَلَيسَ في الدُّنيا روائِحُ حُلوةٌ
حتى تَشَمَّ وُرُودَها يا «عوني»؟
فإذا شَمِمتَ سَكِرْتَ، ثُمّ صُدِعْتَ مِنْ
غَوْلِ العُقَارِ وصِرْتَ كالمَجنونِ[1]
وخُمارُ مَنْ شَرِبَ المُدامَ مُؤكَّدٌ
هذا سبيلُ الشّاربِ المأفونِ[2]

* * *

(١) العُقار ـ بضمّ العين ـ: الخمر.

(٢) الخُمار ـ بضمّ الخاء ـ: صُداعُ الخمر. والمأفون: ناقص العقل.

القصيدة الخامسة

إنْ أهـلَكَ العشْقُ قلباً فالعشيقُ لــهُ
حَــقٌّ بـذلكَ فيـهِ فَهْــوَ صــاحبُهُ
ومُبتَلى القلبِ يعـفو عـن مُدمِّــرِهِ
ومــا بإعمــارِهِ يومــاً يُطــالبُهُ
وإنْ أصــابَهُ حُــزْنٌ لم يكُـنْ أبــداً
يبغي السُّـرورَ، وتُــرضيهِ مَصـائبُهُ

* * *

أقــامَ قلبـي بــأرضِها ولازَمَــها
لِــذا بتُــرْبَتِها دِمــاؤُهُ اختــلَطَتْ
وَسِــرْتُ في درْبِــها أرُومُ وُصْـلتَها
فاغبَرَّ وجهيْ، وروحي ذيْ بِها ارتبَطَتْ

آثـــارُ أقـــدامِها فيهـــا، أأترُكُهـــا؟
كلّا ولـو هـامتي بِموتِهـا سـقطَتْ

***

إذا الـمُحبّون ساؤُوْا في تصرُّفِـهِمْ
فَـقَطُّ ما فَعَلـوا ذاكُـمْ لِيُشـتَهَروا
بل إنّهـم فقَـدوا رُشْـداً لوجْـدِهِمُ
فسامِحُوهُـمْ أيَـا مَـنْ عنـدَكُمْ نظَـرُ
كم فارقَ النّاسَ أهلُ العشـقِ واعتَزَلـوا
كيلا يـكونَ على لُسْنٍ لـهُمْ خبَرُ(١)

***

إنّ الـمُحِبّ الـذي فُـؤادَهُ بِـدَمِ
قد ضرّجَ الحبُّ والـوجْدُ الذي قتَلا
أنّـى تُـولّـي بثغْـرِها حبيبَـتُهُ
أليسَ تُحيِيْهِ لو جـادَتْ لـهُ قُبَلا

---

(١) اللُّسْنُ: جمعُ لسان، كألسُن وألسنة.

أثوابُـها قـد تَحلّـت باللآلِـئِ مِـن
دُمُوعِـهِ؛ فَـهْيَ لا تَحتاجُ قَطُّ حُلى[١]

* * *

خزائنُ العشقِ يا «عوني» قـدِ امـتلأتْ
وليسَ تَفنـى مَدى الأيّـام ثروَتُهـا
وصاحِبُ العِشْقِ ذو مُلْكٍ يدومُ لـهُ
ولا تَـزولُ عُـرُوشُهُ وسَطْـوتُها
إنْ تَملِكِ العِشْقَ ـ يا «عوني» ـ وسُلطتَهُ
تغدو السلاطينُ أدنـى منكَ رُتبتُها

* * *

(١) الحُلى: جمعُ حلية.

القصيدة السادسة

وُجـودُكَ في الـدُّنيا لآخـرةٍ يُسـعى
إليهـا فَـراديسَ، ونيرانُهـا تُخشـى
فإنْ أنتَ غابَتْ عنكَ ـ يا زاهدُ ـ الرُّؤى
وعِشتَ وقد غطّى فؤادَكَ ما غطّى
فإنّـكَ لَم تعـرِفْ لِمـاذا إلهُنـا
لقد خلَقَ الدُّنيا؟ ولِمْ أوجَدَ الأُخرى

***

وفي جنّـةِ الفردوسِ نُعطى حبائباً
لـئلّا يُحِـسَّ العبـدُ ثَمَّـةَ بالسِّـجْنِ!
وإنَّ تَمامَ الأجرِ من خـالِقِ الـدُّنى
يُـزوِّجُ مَـن بـاتوا هنالـكَ في أمْـنِ

فهيّا إلى التقـوى معـاً يـا حبيبتـي
ليجمَعنـا الـرّحمنُ في جنّتَـيْ عـدْنِ

* * *

إذا ما انتهى العمرُ فإنّـكَ ذاهـبٌ
وتــارِكُ أمــوالٍ جَمَعــتَ ومَملَكَــهْ
فما الهَدَفُ المنشودُ ـ يا زاهدُ ـ الذي
أردتَهُ مِـن دُنيـاكَ مِـن قَبْـلِ تَهلُكَـهْ

* * *

وكــلُّ الــذي يومــاً رأيتَــهُ تافــهٌ
ولســتَ بشــأنِهِ تُقــرِّرُ إذْ يَمُــرْ
أكلُّ الذي تبغيه مِن هـذه الـرُّؤى
فؤادَكَ: أن يستلهِمَ الوعْظَ والعِـبَرْ

* * *

وتكتُبُ ـ يا «عوني» ـ القصائدَ تبتغي
لقلبِـكَ أفراحــاً تَجِــيْ في النّهايــةِ

وما هدَفُ الإنشـاءِ بيـعُ مَعـارفٍ
ولا السِّعْرُ قصْدُ الشِّعْرِ عند الكتابـةِ

* * *

القصيدة السابعة

كُثُرٌ هُـمُ الرّاجونَ قلبَ حبيبتـي
مـا هَـمّ قلبـي لحظـةً أن يَكثُـروا
هذا هُـوَ الشّـيطانُ بـينَ جيُوشِـهِ
أَلِأَجْـلِ كيـدِهِ لابـنِ آدمَ يكفُـرُ؟

* * *

رجّحتُ أنّ وسيلتي الفُضلى إلى
قلـبِ الحبيبـةِ أدمُـعُ الآمـاقِ
فَلِـمَ التحـيُّرُ، فالحبيبـةُ دُرّةٌ
والـدُّرُّ في الأصـدافِ في الأعـماقِ
وأنا هـو الغـوّاصُ يَقطَـعُ مـاهِراً
لُجَـجَ البِحـارِ لِلُؤلُـؤي الـبَرّاقِ

* * *

ولِكـــي أرى محبــوبتي في دارِهـــا
كم ذا انتظرْتُ الفجْرَ مـن أنوارِهـا
وكَـم انتظـرْتُ لِهـا ليـاليَ طولَهـا
حِقَـبٌ بـلا يـأسٍ مـنَ اسْـتِنْظارِها
أفَلَمْ يُقَلْ: حتى خُروج الرُّوح لا
لا تُقطَـعُ الآمــالُ مــن إظفارِهــا

***

أبَكيتِ من ألمٍ تُرى؟ أم كيْ تُـرِيْ
دُرَّ الــدّموعِ كَـدُرِّ هــذا الـــمَبسَمِ
يا مَـن إذا نيسـانُ جـاءَ أقـولُ في
شوقِ انتظارِ غُيُومِهِ: فلتَسْجِمي(١)
إذْ إنّ أمطــــارَ الرّبيـــع بَريقُهــــا
كَبَريـــقِ دُرّ العـــيْنِ أو دُرِّ الفَــمِ

***

---

(١) سَجَمَتِ العينُ الدمعَ والسحابةُ الماءَ تَسجِمُهُ وتسْجُمُه سَجْماً: أسالته، وسجمَ الدمعُ: سال.

مهما تكُن أذنَبتَ ـ يا «عوني» ـ بلا
حَدٍّ لِـوِزرِكَ في الصَّـحائفِ يعظُـمُ
فَسَلِ الكريمَ ندىً، ولا تيْأَسْ مِنَ الـ
ـرحمنِ؛ فَهْـوَ جَميـعَ خَلْقِـهِ يـرحَمُ

* * *

القصيدة الثامنة

نِيَّتــي أن يكــونَ في الله سَــعْيِيْ
طائعــاً ذا الجــلال والإكــرامِ
وبِقلبــي حَميَّــةٌ أن أشُــنَّ الـــ
ــحرْبَ نـاراً عـلى عِـدا الإسـلامِ

***

مــعْ رِجــال الله الفضــائلُ طُــرّاً
وبَعَثْــتُ حَمــدي لهُــمْ والسَّــلاما
وبِقلبـي قـد أُودِعَـتْ رَغْبتـيْ أنْ
أمْحُــوَ الكُفــرَ والظــلامَ تَمامــا

***

أتّقــي اللهَ مــا اسـتطَعْتُ وأقْفُــوْ
مَــنهَجَ الأنبيــاءِ والأوليــاءِ

ومُنى قلبـيْ لُطْـفُ ربّي بنـا بالنَّـ
ـــصْرِ عنــدَ الجهــادِ للأعــداءِ

***

مــا يُفيــدُ اجتِهــادُ مَــرْءٍ بــنَفْسٍ
وبِــمالٍ لأجْــلِ هــذي الــدُّنيا
فَهْــيَ تَفنــى، والشَّــيْءُ لله يبقــى
والرِّضــا غايــةٌ لِنفســيَ عُلْيــا
وإذا لِلإســلام حُقِّــقَ نَصْــرٌ
أحْمَــدُ اللهَ أيــنَ كــانَ وأيّــا!

***

إنّهــا يــا مُحمَّــدُ بْــنَ مُــرادٍ
مُعجِــزاتٌ لأحمَــدَ المُختــارِ(١)
وبِهــا أســألُ المُهَــيمِنَ عَونــاً
فــاتحٌ دينُنــا بــهِ كُــلَّ دارِ

---

(١) صرّح شاعرُنا رحمه الله هنا باسمه ـ وإن كانت نسبته لأبيه ـ زيادةً مني، وهي القصيدةُ الوحيدةُ التي لم يذكر فيها مخلصه «عوني».

وانهيــاراً لدولـــةِ الظُّلْـــم دكّــاً

وانتصـــاراً لدولـــةِ الأبـــرارِ

* * *

القصيدة التاسعة

صـــعبٌ بلـــوغُ عاشـــقٍ مُدلَـــهٍ
إلى حبيـــبٍ حُســـنُهُ يأخُـــذُ
كـــما إلى الســـلطان في عـــزِّهِ
مُـــدَّتْ بِـــذُلٍّ كـــفُّ مـــن يشـــحَذُ

***

يخـــافُ مـــن أعـــرفُ أن ينظُـــروا
إلى ســـيول أدمُعـــي الجاريَـــهْ
وحُـــقَّ ذا هُـــمْ فمـــن يعبـــرِ الـــ
ـــبحرَ يســـرْ بـــهِ إلى الهاويَـــهْ

***

إزهـــاقُ روح العاشـــقِ الوامـــقِ
ومَـــوتُ ذي المحبّـــة الصـــادقِ

أســـهلُ ألـــفَ مـــرّةٍ عنـــدَهُ
مِـــنَ الفِـــراق القاتـــلِ الخـــانقِ

* * *

محبـــوبتي تُـــؤذي جميـــع الذيـــ
ـــنَ يـــدّعونَ أنهـــم عاشـــقوْنْ
تريـــد أن تعـــرفَ مَـــن كـــاذبٌ
بيـــنَهُمُ ومَـــن هُـــمُ صـــادقوْنْ

* * *

غـــــرّارةٌ دُنيـــــاكَ مكّـــــارةٌ
لا تَخـــدَعَنْكَ اليـــومَ يـــا «عـــوني»
مـــا احتَمَـــلَ الأبطـــالُ في بأســـهمْ
مـــا لأذى النّســـاء مِـــن لَـــوْنِ

* * *

القصيدة العاشرة

وإنْ تـكُ في الـدُّنيا لـديَّ حبيبـةٌ
فكيف سأهوى غيرَها؟ ما احتياجُها؟
فَسُلطانتي ما كنتُ عبـداً لـدونِها
وقلبي لها عرشٌ، كذا الحُسْنُ تاجُها

***

إذا مـا أتـى فصـلُ الربيـع بدفئِـهِ
نَما كلُّ غُصْنٍ يابسٍ كانَ واخْضَـرّا
ولكِـنْ فراقـيْ للأحبّـةِ مُـؤلِمي
ويَملأُ جمـراً مُهجتـي والحَشـا ضُرّا
فمن حسرتِي جاء الخريف، فَزفْرَتي
لقدْ صوَّحَتْ زهْرَ الحدائقِ فاصْفَرّا

***

وبَعْـضُ مَزيّـاتِ الـوُرودِ دلالـةٌ
علـى كـلّ معنـىً مُـبهِجٍ في التَّأمُّـلِ
ومحبوبتي زهْـرُ الخُزامـى أريجُهـا
ومَنطِقُهـا عَـذْبٌ كتغريـدِ بُلبُـلِ
ولكنّها زادت جُـروحَ مـواجِعي
فهَلْ هِـيَ رامَـتْ بـالتَّمَنُّع مقـتَلي؟

***

ويَـزدادُ يومـاً بعـدَ يـوم تلـوُّعي
ويشتَدُّ حُـزني والجَـوى وتـوَجُّعي
فإنّ التي أفنيـتُ عُمْـريَ خادمـاً
أبَـتْ ليَ إكرامـاً ولَـوْ بتَصنُّع
عزَّتْ وعاشتْ في السعادةِ عُمْرَها
وأبكي بقلبٍ مُحْرَقٍ بـينَ أضـلُعي

***

وتَحظُرُ ـ يا «عوني» ـ الملاهيْ وخمرَها
وتبعُدُ عن شَأنِ الغَـويِّ الـمُفَسَّقِ

وأعداؤُكَ الفُجّارُ أضحَوا تُعينُهُمْ
جُيوشُ هُموم، فيلَـقٌ خلـفَ فيلَـقِ
وأنتَ مَصُونٌ لا تَخَفْ من وُصُولِهِمْ
إليـكَ؛ فأنـتَ اللهَ تَخشـى وتتّقـي

* * *

القصيدة الحادية عشْرَة

أيُّها الساقي اسْقِنِيْ كأسَ المُدام
نحنُ أحْياءُ وإنّا في سَلام
وسَنَفْنى مِثْلَ بُستانِ خُزامى
ذاتَ يوم، أو كَنُوّارِ ثَغَام(١)
أو ثِمارٍ نَضِجَتْ؛ فاجْتُنِيَتْ
في خريفٍ، أو هَوَتْ فوقَ الرُّغام(٢)

***

كيفَ أبقى زاهداً جَمَّ التُّقى
إذْ أرى طَرْفاً لها مُكْتَحِلا

---

(١) النُّوّار ـ بضمّ النون وتشديد الواو ـ: الزهر، أو الأبيضُ منه، والثَّغام ـ بفتح الثاء ـ: شجر أبيضُ الزهر والثمر.

(٢) الرغام: التراب.

وقَوامـاً فارعـاً شـادَ الصِّبا

مـثلما شـادَ النَّصـارى الهَـيْكَلا

أفقِـدُ الـنَّفْسَ لـدى رؤيَتِهـا

وعـلى دِيْنِـيْ أخـافُ الـزَّلَلا

* * *

صِرتُ مِنْ وجْدي هـزيلاً نـاحلاً

كـتُرابٍ نـافخٌ ينشُـرُني

وفـؤادي لَمْ يعُـدْ مُحـتمِلاً

نـارَ آهـاتي وجَمْـرَ الحـزَنِ

وأنينـي إنْ أنـا أظْهَرْتُـهُ

أفسَـدَ الصُّبْحَ زفـيرُ الأُتُـنِ(١)

* * *

أدِّ حَـقَّ الحبِّ مـن هـذا الحَلا

لِمُحـبٍّ صـارَ مَفْطـورَ الكَبِـدْ

---

(١) الأُتُن ـ بضمّتين ـ: جمع أتّون، وهو التنّور وزناً ومعنى.

وبِهــذا الــحُسْنِ لا تغــترّ في
ذاتِ يــوم، أو عليــهِ تعتَمِــدْ
ســوفَ لــن يبقـى جَمـالٌ لامـرِئٍ
أنــتَ أيضــاً لــهُ يومــاً مُفْتَقِــدْ

***

معَ مَـن يَبغـي بِمَحبـوبي الظَّـفَرْ
وجَبَـتْ حَـرْبي ببـأسٍ في الخَطَـرْ
وغريمــي تافــهٌ إيــذاؤُهُ
عادَ بعـدَ الزَّجْـرِ كالكلـبِ السَّـعِرْ
فعَــلَيَّ الآنَ أضــحى قتلُــهُ
واجبــاً أو أفقِــدُ الحِــبَّ الأغَــرْ

* * *

القصيدة الثانية عشرة

تعالَوا شرابَ العشْقِ نشرَبْ ونسلُكا
طريـقَ مَلاهـي السُّـكْرِ ولْنتَهتَّـكا
وعندَ وصولِ غايةَ السُّكرِ نفتَخِـرْ
بما نَحنُ قدّمْنا امْتِهاناً بِـلا اشْـتِكا
لأكـبَرِ خَمّـارٍ هنـاكِ بِحانـةٍ
ضحِكْنا بِها بعْدَ الشرابِ إلى البُكا!

***

لِنشْرَبْ خُمورَ الحُبِّ من جرَّةِ الصِّبا
ونَسْـكَرْ بِـما كُنّـا شَرِبْنـا لنفرَحـا
ونَصْـعَدْ لِطُـورِ العاشـقِيْنَ بذِلّـةٍ
ونضْرَعْ إلى قلبِ الحبيبِ لِيَسْـمَحا

***

شَرِبْنــا حُمَيّانــا لأجْــلِ حبيبــةٍ
فلامَ أخُو الزُّهــدِ التّقــيُّ شرابَنــا[١]
ولَمْ يَقبَلِ الشَّيخُ الجليــلُ اعْتــذارَنا
وأمعَـــنَ في عَـــذْلٍ وردّ خِطابَنـــا
ولَــو أنــهُ للعُــذْر يقبَــلُ عنــدَها
صببْنا لَــهُ كأســاً ليَــدْريْ صــوابَنا

***

وإذْ يدّعي ذو الزُّهْــدِ عفّــةَ نفسِــهِ
عنِ الكأسِ كأسِ العشْقِ عندَ معابِنا
فإنّا عليهِ سوفَ نستشْــهِدُ الطّــلا
بأنــهُ يحســو كأسَــها في غيابِنــا

***

إذا أنتَ ـ يا «عوني» ـ حَملْتَ أمامَها
غُمُومــاً وآلامَ الفِــراقِ مــعَ الهَــمِّ

(١) الـحُمَيّا: صدمةُ الخمر، وتُطلَقُ على الخمر نفسِها.

يُكَـدِّرُ منهـا ذاكَ مِـرآةَ قلبِهـا
وأنـتَ إذا كـدّرتَهَا كنـتَ ذا ظُلْـمِ
فأَخْفِ لكي تَجلُوْ لَهَا القلبَ لامِعاً
كما فعلَتْ بالكأسِ صُبَّتْ إلى الـتِّمِّ

* * *

القصيدة الثالثة عشْرة

رأيتُ وجْهاً مُشْــرِقاً كالضُّـحى
ملائكــيَّ النُّــورِ ضــاءَ الــدُّنى
وجَعْـــدَ شَـــعْرٍ أســـوَدٍ فـــاتنٍ
كشَـــجَرٍ في جنَّـــةٍ ذا جَنَـــى
وعَرِقَـــتْ مِـــنْ خَجَـــلٍ لُؤلُـــؤاً
إذْ سَـــمِعَت أنـــينَ مَـــن أُفْتِنـــا

***

تَمـــيسُ في رشـــاقةِ السَّـــرْوَةِ
وتَرتَـــدي مَلابـــسَ الفِتنَـــةِ
منقوطَـــةً بأســـوَدٍ فاغْتَـــدَتْ
أجمَـــلَ مَـــنْ في أرض أوربّـــةِ

وتُوِّجَـــتْ بالحُسْـــنِ سُـــلطانةً
عــلى غَلاطَـــةٍ، كَـــذا مُهجتـــي

***

إنْ مُهجَـــةُ العاشـــقِ لم تَـــرْتَبِطْ
بالحِـــبِّ مُخلِصـــاً يضـــيْعُ اليقـــيْنْ
ويْـــلاهُ مِـــن بَنـــاتِ أوربّـــةٍ
يُغويْنَنـــا، وهُـــنَّ مَـــنْ قَـــدْ غـــوِيْنْ
قَـــدْ أبْـــرَزَتْ مِـــنْ أظْهُـــرِ بَضَّـــةٍ
أزرارُ أثـــوابِ لهـــا يَرْتَـــدِيْنْ

***

أوشَـــكَتْ تقتُلُنـــي السّـــاحرَهْ
بِـــدلِّها وعَينِهـــا الفـــاتِرَهْ
وشَـــفَتاها بـــالطِّلا تنفُثـــ
ـــانِ الـــرُّوحَ في أعْظُمِـــيَ النّـــاخِرَهْ
كأنهـــا مِـــن مُعجـــزاتِ لعيـــ
ـــسى إذْ أتـــى الأُمَّـــةَ الكـــافرَهْ

***

لا تَحســـبَنّ قلـــبَ مَحبوبَتِـــكْ
يُجـــبَرُ في يـــوم عـــلى طاعتِـــكْ
إن كُنتَ ـ يا «عوني» ـ ترى أَنَّكَ الـ
ـــسُّلطانُ، إســطنبولُ في قبضَـتِكْ
فَهْـــيَ عـــلى غلاطَـــةٍ تُوِّجَـــتْ
سُـــلطانةً تَتِيـــهُ في حضْـــرَتِكْ

* * *

القصيدة الرابعةَ عشْرةَ

كَم تألّمتُ صامتاً وبكيتُ
أسترُ العينَ، في فُؤادي حكايا
فإلى الدّمع العاذِلون انتبَهوا فانْـ
ـكَشَفَتْ من أسرارِ قلبي الخَفايا

***

أنا حافٍ فوقَ التُّرابِ ومُلْقىً
بِهَوانٍ قُدَّام عَرْشِ الجَمالِ
وكأنّي أمامَ بلقيسَ في مَمْـ
ـلَكَةِ المَجْدِ والغنى والكَمالِ
حائراً كيفَ ما سُلَيمانُ قد قصّ
عليكِ أخبارَ وادي النِّمالِ

***

إنّني مثلُ شمعةٍ لَكِ أبكي
فأُضيءُ المكانَ إذْ تَجلِسينا
بينما أنتِ قد أنَرْتِ خيالاً
غُرفتي مرّةً بِها زُرتينا
فانْظُري ليْ، شتّانَ ما بينَ طَيْفٍ
مثْلَ نَجْم، وشَمعةٍ تُحرِقينا

***

شعَّتِ النّارُ في فُؤادي لِوَجْدي
فأضاءَتْ ظَلامَ ليليْ كَبَدْرِ
أو كصُبْح زان السماءِ بِنُورِ
وسهِرْتُ حتّى بُزُوغ الفَجْرِ
فدُهشتُ؛ لَمْ أدْرِ مِنْ ضوءِ ناري
ضوءَ يومي وصُبحِهِ المُفتَرِّ

***

أمسِ عنّي منعتِ حُبَّكِ حتّى
أهلَكَ القلبَ عِشْقُهُ والهُيامُ

وظلمْـتِ الفـؤادِ منّـي بوصْـلِ
لِغريْمـي، ظُلْـمُ المُحِـبِّ حـرامُ!
أفَـما أثَّـرَتْ بقَلبِـكِ أنّـا
تي وصَرْخـاتُ الوجْـدِ والآلامُ

***

إنّني - يا حبيبتـي - عـاجزٌ عـن
شَرْح آلام ذا النَّـوى في قلبـي
فعسـى يُوضِـحُ اهـتراءُ ثيـابي
وجـراحُ الصَّـدْرِ الحـزينِ الصَّـبِّ
أنّنـي قـد عانَيْـتُ مـا لا يُطيـقُ
حَمْلَـهُ شَـخْصٌ مـن مَواجِـع حُبّـي

***

إنّ «عـوني» يرجـوكِ لا تقتُليـهِ
بصُـدودِ العُيـونِ والهِجْـرانِ
هاكِ مِن دمعـيْ لُؤلُـؤاً، لـهُ بَحـرٌ
مِـن بُكـائي، أصـدافُهُ العَيْنـانِ

وَخُذي مِنْ جواهِرِ القلبِ ما شِئتِ

مِـنَ الـدُّرِّ ـ هـاكِ ـ والمَرجـانِ

* * *

القصيدة الخامسة عشرة

هذا الجمالُ حبا الدُّنيا مفاتِنَها
ووزَّعَ الحُسنَ في الأرجاءِ كيفَ يشا
أعطى نسيمَ الضُّحى لطفاً، وسندُسَهُ
على ربوع جنانِ الأرض قد فَرَشا
وإذْ تطير فراشةٌ مُنَمنَمَةٌ
فمنهُ وشيُ جناحيها لقد نُقِشا

***

كم ذا أروم اختلاس اللثم من شفةٍ
فأنتشي بِطِلاً تجودُ بالطَّرَبِ
في لحظةٍ من وصالٍ نامَ عاذلُها
فالرشفُ يُطفِئُ ذا الوجدَ المُبرِّحَ بِيْ

لكنني قد أرى ظلّي يُلاحظُني
ولا وسيلةَ منِ ظلّي إلى الهرَبِ

* * *

شلّالُ شَعرِكِ قد أجرى بروعتِهِ
شلّال شِعْري، وأجرى العينَ بالماءِ
وحاجباكِ أميرا شَعرِكِ استَلَبا
عَرشَ افتِتاني وأشواقي وأهوائي
فإن نظمتُ قصيدةً فقد جَعلا
أبياتَ وصفِهِا فيها كطُغْراءِ

* * *

لو أنَّ عينيكِ ـ يا عينيَّ ـ أبصرتا
على البحيرة ضوءَ الشمس والقمرِ
أكان في ميعة الضُّحى وورونقِهِ
أو في هدوءِ غفُوِّ الكون في السَّحَرِ
لفاقَ حُسنُهما، وشع نورُهما
شَتّانَ شتّانَ بين الدُّرِّ والحَجَرِ

* * *

ورودُ خدّيكِ هزّت قامةَ السَّــرْوِ
في ذي البساتينِ في شوقٍ وفي شجوِ
وأطربَت ثُلّـةَ البلابـلِ اشـتبَكَتْ
أصــواتُها تشـتكي الهُيـام بالشَّــدْوِ
ومنكِ غارت أزاهيرُ الرّياضِ فقا
نيها مِنَ الغيظِ لا مـن نشـوة الزَّهْـوِ

* * *

بربّكم يا أولي النُّهـى ومـن نظَـرا
ومــن تفكَّــرَ يومــاً يبتغــي العِــبَرا
لـو أنهـم قـدّموا الـدُّنيا بأجمعِهـا
لِيْ ثمّ أعطَوْنِيَ الكونَ الـذي عمُـرا
إن مطمَعُ الفُقَرا في أخذ دولـتِهمْ
إنّ القناعــةَ كانــت دولــةَ الفُقَــرا

* * *

ليس عليّ بـأن أعطـي الفـؤادَ إلى
محبوبة القلب والعينين يـا «عـوني»

فـإنْ يكُـنْ قـدَرَ العبـادِ عشـقُهُمُ
أصابَ هذا الذي فوقي ومَن دُوني
فليس بِدْعاً هـوى قلبـي بفـاتنتي
سحرُ الغواني ـ وربِّيْ ـ غيرُ مـأمونِ

* * *

القصيدة السادسة عشْرةَ

لآلِـئُ ثَغْـرِكِ الـبَرّاقِ أجْـرَتْ
دُمـوعَ العـينِ كـالبحْرِ العميـقِ
ويـاقوتُ الشِّـفاهِ أفـاضَ قلبـي
دمــاءً قانيـــاتٍ في عُروقـــي

***

لِبارِع حُسنِكِ السُّلطانُ أضحى
ـ كما قـد قيـل ـ عبـداً مـن وُلوعِـهْ
وإذْ هُـوَ صـارَ في الخُـدّام أيضـاً
تَسَــلْطَنْتِ عـلى الكـونِ جَميعِـهْ

***

إذا عجـزَ الطبيـبُ عـنِ الـدواءِ
وَلِيْ قــد قــال: عشــقُكَ شرُّ داءِ

فـــإنّي مُـــدركٌ أنّ ارْتِشـــافي
رُضــاباً مــن شـفاهِكِ ذي دوائــي

* * *

أضاعَ النفْسَ عاصي القلْـبِ لـمّا
تعــرَّضَ في جنُــونٍ للسِّـــهامِ
تُســدِّدُ رَمْيَهــا الأهــدابُ يبغــي
يُحــيِّرُ مَــن رمَتْــهُ بـــالغرامِ
فَــكُونوا عَوْنَــهُ يــا مُســلمونَ
ولا تَــدَعُوهُ ينــزِفُ لِلحِــمامِ

* * *

إذا واتَــتْ مُناسَــبَةٌ لِنَــزْعِ
سُــتُوراً عــن مفاتِنِهــا المُــرادَهْ
فأنتَ كساكَ حظُّكَ ثَوبَ سَعْدٍ
ونِلْــتَ صـفاءَ دهـرِكَ والسَّــعادَهْ

* * *

عقيــقٌ في عيونِــكِ حــينَ تبكــي
كأنـــهُ مِــنِ عقيــقِ في الشِّـــفاهِ
وشَـــعْرُكِ ذلــكَ المجنــونُ لاهٍ
فقَلبـــيْ منـــهُ حــيرانٌ وســـاهِ

***

أيــا «عــوني» دُمُوعُــكَ باعِثــاتٌ
بقلبِـــكَ هِمَّـــةً تُـــدني المَرامـــا
كَبُســـتانٍ بِـــلا مـــاءٍ يَبِــيْسٌ
بــه نُبَتَــتْ زُهَــيراتُ الخُزامــى
فبثَّــتْ فيــهِ رُوحــاً فاســتَثارَتْ
غُصــوناً كُــنَّ في يــوم حُطامـــا

* * *

القصيدة السابعةَ عشْرةَ

لستُ أدريْ أدَماً أم دموعاً
فاضَتِ العَينانِ منّي بِجارِ
فَهُما احْمَرَّتا كعقيقِ
أو كَمَرْجانِ نَما في البِحارِ
أَمْ أُسِيلتْ ذكرياتُ شِفاهٍ
فَوقَ وَجْناتِ ذَواتِ اصْفِرارِ

***

أظهَرَتْ كُلَّ الذي في الفُؤَادْ
لَكِ عيناايَ مِنَ الوَجْدِ زَادْ
أفَيَبْقَى حُبُّنا بعدَها
بينَنا سرّاً لِيَوْم المَعَادْ

***

أتُرى كـالبحر أضحى بُكـائي؟
أقُطَـــيراتٌ لـــهُ كـــدُموعي
هـــوَ لا يَسْـــطيْعُ ينشُـــرُ حبّـاتِ
لآلٍ منْـــــهُ ذات سُـــــطُوعِ
مـــثلَما أفعَـــلُ في كـــلِّ حـــينٍ
من جَوى القلبِ وحُـزني الوجيـعِ

***

عنــدَما يضــطرِبُ القلــبُ منّــي
وتكـــادُ الــرُّوحُ للوجــد تُزْهَــقْ
اُنظُــروا: هــل مــا بِيَ السُّــقْمُ أمْ ذا
أثَـــرُ الحُـــبِّ أمَـــضَّ وأقْلَـــقْ

***

أصـبَحَت تنفـي حبيبـةُ «عـوني»
أنهـــا آذتُـــهُ في الــــدَّهرِ يومـــا

وادَّعَـــتْ أنّ التـــي لَـــهُ آذَتْ

كانتِ الـدنيا الظَّلـومَ الغَشـوما[١]

* * *

(١) اسمُ الفعل الناقص «كان» مقدّرٌ تقديره «هي».

القصيدة الثامنة عشْرةَ

إنّي إذا نظـرَتْ عُيــوني بُــرعُماً
مُتفتِّحــاً بالسِّــحْرِ في شــفتَيْكِ
يتمزَّقُ القلـبُ الحـزينُ ويكتـوي
وأُجَــنُّ مِــنْ شَـوقٍ إلى عينَيْــكِ
وإذا رأيـتُ الوجْـهَ منـكِ مـورَّداً
يعلــو نُــواحي بُلــبُلاً في الأيْــكِ

***

إنْ جـاءَ قلـبُ العاشـقِ المُتَلهِّـفِ
يومــاً لِبابِــكِ لا تَــرُدّي سُــؤْلَهُ
وهَبيْهِ منـكِ دواءَهُ الشـافي الـذي
قد عـاشَ يأمُـلُ عنـدَ بابِـكِ نَوْلَـهُ

***

يـــا لَلجَـــالِ؛ فإنّـــهُ مُتفـــرِّدُ
وعقيـــقُ ثَغْـــرِكِ زادهُ في روعَـــةِ
جعَلـوهُ ملحمَـةَ الزمـانِ كأنـهُ
إذْ قُـصَّ في سَـمَرٍ شـجاعَةُ حَمـزةِ!

***

في القلبِ شـوقٌ للقَـوامِ الفـارِعِ
وإلى مفـــاتِنِ ذا الجـــالِ البـــارِعِ
مثْلَ الذي اشتاقَ السَّجينُ بسِجنِهِ
للجَرْي في رَحْبِ الفضـاءِ الواسِـعِ
ولكي أحُلَّ طلاسِمَ الشَّفَتَينِ قـد
ثارَتْ بنفْسـي رغبتـي ومـواجِعي

***

وحقيقـةُ المـوتِ المُحـتَّمِ صَـعْبةٌ
عسُـرَتْ عـلى الأفهـام والأوهـامِ

وأراكَ ـ يا «عوني» ـ قَدِ اسْتَسْهَلْتَها
وغَــدَتْ لــدَيكَ يســيرةَ الإقــدامِ
عندَ اشـتغال القلـبِ في نظَراتِها
مِــن مُقلتَــينِ هُمــا كأحسَــنِ رامِ

* * *

القصيدة التاسعة عشْرةَ

ومـا في الوجـودِ كهـذا الجـمالِ
جَمالٍ لِـ«ويسٍ» ولا في الخيـالِ[١]
سَقَتْني الطِّلا مـن عقيـق الشِّـفاهِ
بسـاعةِ أُنْـسٍ حَلَـتْ وَوِصـالِ
فَلَـيسَ لِـداء الفـؤادِ دواءٌ
يكون سِـوى حُسْـنِ هـذا الغـزالِ

***

مِـنَ الآنَ مِـنْ حُـبِّ غـير الحبيـ
ـبِ مـا عـادَ بـينَ البلابِـلِ شـادِ

(١) ويس: اسم محبوبته، أو هو اسمٌ مستعارٌ لها.

فــوردةُ قلبِــيَ «ويــسٌ» تَفتْـــ
ـتَحَتْ بَعْدَ طُولِ النّوى في فـؤادي

***

أيــا مــنْ تَمَلَّكَــتِ القلــبَ منّــي
وقلبــي لهــا قـــد غــدا مَمْلكَــهْ
أيا «ويسُ» مَنْ فوقِ عرْشِ الفؤادِ
جلســتِ ســنينَ بـــلا شَرِكَــهْ
فهَــلْ أنــتِ للقلْــبِ عــامرةٌ
أوَ انَّـــكِ للقلْـــبِ مُتَّرِكَـــهْ

***

أيا مَنْ غَدَتْ حالُـهُ في اضـطرابِ
إذا «ويــسُ» أضــحَتْ لَــهُ زائــرَهْ
لَهَــا قَـــدِّم العــينَ ولْتَسْـــقِها
شرابَ دُمـــوعِ الهــوى الحــائرَهْ
وأطْـرِبْ بلَحْــنِ ربــابِ الفــؤادِ
لَهَـــا الأُذْنَ في الليلـــةِ الســـاهرَهْ

***

أ«عـوني» قَـدِ ابْتَسَـمَ الحَـظُّ بعْـ
ـــدما عنْـكَ ولّى زمـانُ الصُّـدوْدْ
وأنــــتَ تَــــزورُكَ مَحبوبـــةٌ
وقَـدْ حَـنَّ منهـا الفـؤادُ الصَّـلوْدْ
فَـبُحْ بِـالهوى، لا تُضِـعْ فُرْصَـةً
بعُمْـرِكَ تُشْــرى، وقـد لا تعـوْدْ

*　　*　　*

القصيدة العشرون

هــــذِهِ مَــــنْ شَــــفَتاها بُـــرعُمٌ
أُنظُـروا: كـمْ غَـدَتِ اليـومَ جميلَـهْ
أصــــبَحتْ قامتُهـــا ذِيْ سَروةً
تَمـلأُ العـينَ وتُـردي القلـبَ غَيْلَـهْ
وهْيَ كانـتْ أمسِ تجْـري طِفلـةً
عُودُهـــا واهٍ ضَـــعيفٌ كَفَســـيلَهْ

* * *

عنــدَما رُمْــتُ لنفــسي بهجــةً
رُحْــتُ عــن مائِـدَةِ اللَّــذَّةِ أســأَلْ
فَعَـــلى مائِـــدَةٍ مـــن حُســـنِها
هُيِّـئَ الشَّـهْدُ مِـنَ الثَّغْـرِ لِيُؤْكَـلْ

* * *

يَرقُبُ النّـاسُ هـلال العيـدِ كـيْ
يفرَحـوا بالعِيْـدِ مِـنْ بعـدِ الصِّـيامِ

وأنــا أرقُــبُ منهــا حاجبــاً

يَرشُــقُ القلــبَ المُعنّــى بالسِّــهامِ

* * *

إنّنــي أســكُنُ روضــاً مُونِقــاً

زرْكَــشَ الزَّهْــرُ نواحِيْــهِ ونَمْــنَمْ

وبِــــوَرْدٍ في مُحيّــــا حُلــــوتي

أنـا وحْـدي في الـورى مـن يـترَنَّمْ

ومَعـي في الـروض آلافُ الــبلا

بلِ تَبغي العِشـقَ، والعِشْـقُ جهـنَّمْ

* * *

إنَّ «عـوني» جُـنَّ مُـذْ ذاقَ الحـلا

وةَ شَــــهْداً في عقيــــقِ الشَّــــفتَيْنِ

وهْــيَ إذْ غابَـتْ زمانـاً ثُــمَّ عــا

دَتْ إليْــهِ بعــدَ هِجــرانٍ وبَــيْنِ

وجَــدَ الشَّــهْدَ غَــدا فيــهِ ألَــذَّ

وأحـــلى، ثُـــمَّ أحـــلى مـــرّتينِ

القصيدة الحادية والعشرون

وتنشُرُ عيناها شُعاعاً على الدُّنى
وإنّي بهِ كحَّلتُ عينيَّ تكحيلا
وشاهدْتُ منهُ كلَّ شيءٍ رأيتُهُ
جَميلاً، ومعنىً كان أحسنَ تأويلا
وإنّي إذا فكَّرتُ في ألَمِ النّوى
أُجَنُّ فتعلوني السعادةُ مخبُولا

***

ديارُ فؤادي إذ عشقْتُ حسِبتُها
خراباً؛ كما قالوا بشأنِ أُولي الحُبِّ
ولكنَّ من أهوى بِحسراتِ فُرقةٍ،
وآهاتِ آلامِ لقد عمَرَتْ قلبي

***

يُطَوِّحُ بالعُشاقِ إذْ سَكِروا الهـوى
كـما بغُبـارِ البيـدِ طوَّحَـتِ الـرِّيْحُ
فـدُلِّي إلى الـدَّرْب القـويمِ مُتـيَّماً
فأنـتِ مَنـارٌ فيـهِ للقصْـدِ توضـيحُ
بِجَبهتِـكِ البـدرُ الأغـرُّ ونـورُهُ
وحُسنُكِ شمسٌ منها للخدّ تفتـيحُ

***

وهذا الذي قدْ يدّعي الزُّهدَ كاذبـاً
لقد ترَكَ الصلاةَ من شُرْبِ أكْـؤُسِ
وبـالَغَ في غـيٍّ فصـحَّحَ فِعْلَـهُ
بدعوى اجتهادٍ في الكتاب المقدّسِ

***

لقـد نَـزلَ الشَّـعْرُ المُـدلّى فسـتَّرا
لها خدّها الـبرّاقَ كالصُّـبْحِ أسـفرا

وإنْ هيَ لَم تُظْهِرْ لِـ«عوني» جمالَهـا

يعودُ إلى الإظـلام ليلُـهُ أخْـدَرا[١]

* * *

(١) الليلُ الأخدَرُ: شديد الظُّلمة.

القصيدة الثانية والعشْرون

لَهَونا والشَّرابُ لَهُ بغَوْلِ
أطاحَ بِما تبقّى من عُقولِ
فخلتُ بأنّني قد صِرْتُ حقّاً
بِجنّاتِ الفراديسِ نُزولي
وخُدّامي ظَنَنتُهُمُ ـ وصبُّوا
كؤوسَ الخمر ـ حُوْرَ العيْنِ حَوْلي

***

نسائِمُ في النُّفُوسِ مُؤثِّراتٌ
مِنَ الستِّ الجِهاتِ لَها هَفِيفُ
وفي زمن الربيع أتى حبيبي
بأربعةِ المواسم منهُ «كَيْفُ»(١)

(١) الكيْفُ: نستعملهُ اليوم في زماننا، بمعنى الهوى، يُقال: على كيفكِ، أي: وفق هواك.
=

شتاءُ الدمْع، صيفُ الهجرِ يكوي
ربيـعُ الوصـلِ، والوجْـدُ الخريـفُ

***

= وهي كلمةٌ لم أجدْ لها في المعاجم وكتب اللغة إيراداً، إلا أنّ لها تخريجاً هو اشتقاقٌ من استعمال «كيف الشرطية» تقول: «كيف تصنعُ أصنعُ»، وشرطُها فعلانِ متفقان لفظاً ومعنى غير مجزومَين.
فكأنّ القول: «على كيفك» هو: كيف تُحبُّ وتهوى هذا الأمر أحبُّه وأُعطيكَ إيّاه، والله أعلم.
وقد وجدتُ لاستعمال هذه الكلمة بهذا المعنى ظرافةً لا يُوجِدها استخدامُ كلمة أخرى؛ فتجوّزتُ لذلِكَ وأتيتُ بها.
بل إنني قبلتُ الوقوع في أحدِ عيوب الشعر، وهو «سِنَادُ الـحَذْو»، وأنت تراه في الفتحة على الكاف، والأجودُ كسرُ ما قبلَ الياء، وهذه الياءُ تُسمى في العروض «الرِّدْف»، وهو ألفٌ أو واوٌ أو ياءٌ سواكنُ قبل حرف الرويّ معه، وتجتمع الواو والياء معاً في قصيدةٍ، والألف لا تأتي إلا وحدَها، ويُشترَطُ أنْ تكون قبل كلٍّ من هذه الأحرف حركةٌ تناسبه، وهو الضمة قبل الواو، والكسرة قبل الياء، والفتحة قبل الألف.
أما قبل الألف فلا تأتي إلا الفتحة، وقد تأتي قبل الياء والواو غيرُ حركتهما، كالفتحة قبل الياء، كما هو لدينا، فيقع «سناد الحذو»، وهو عيبٌ مقبولٌ مع عدم الكثرة وقع في شعر الجاهليين، وهو في معلقة عمرو بن كلثوم.

وذو ظُلـمٍ مـن الزُّهّـادِ قـاسٍ
شـديدِ القلـبِ في بـذْلِ العِظـاتِ
أيُمكـنُ ذاتَ يـومٍ أن نـراهُ
بقلـبٍ فيـه بعـضُ اللـين يـاتي
إذا هـو لَمْ يُبـدِّلْ حاسـناتٍ
مِـنَ اخْـلاقٍ لـهُ بالسَّـيِّئاتِ

* * *

أمَـا مَـنْ يُـترِعُ الأقـداحَ عشـقاً
ويشـرَبُ خمرَهـا حتّـى الثُّمالَـهْ
إذا أجـرمتُمُ وإذا وقعـتُمْ
كثـيراً في الـذنوبِ مـنَ الجهالَـهْ
وسـيلتُكُم إلى الغُفْـرانِ تـرْكٌ
لِمـا قَـدْ حَـرَّمَ اللهُ فِعالَـهْ

* * *

أيـا «عـوني» إذا مـا رُمْـتَ قـولاً
فشـاوِرْ مُرشِـداً فَطِنـاً أمينـا

مِنَ اهْلِ العلْـمِ ذا تقـوى حكـيماً
ودَعْ عنــكَ الرّعــاعَ الجاهلينــا
ولا تأبَــــهْ بقــــولِهِمُ جميعــــاً
أكـــانوا عِلْيَــــةً أو أرْذَلينــــا

* * *

القصيدة الثالثة والعشرون

زادَ الشّــــرابُ بلَونِــهِ وصــفائِهِ
وَجْناتِهـــا وخُـــدودَها لَمعانـــا
وتفتَّحـــتْ أكـــمامُ وردٍ يـــانعٍ
في روضِ وجــهِ هزَّنـــا وَسَـــبانا
فَحَبَــتْ حــديقَتَها جَمــالاً ثانيــاً
بُســـتانُ حُسْـــنٍ زيّـــنَ البُســـتانا

***

بالمِسْكِ فاحَ ســوادُ شــعركِ بينما
بــالنُّور شــعَّ السِّــحرُ في الخَــدَّيْنِ
فكــأنّما عُــرْسٌ تــألَّقُ في الــدُّجى
شَـــمْعاتُهُ في رقّـــةٍ وحنـــينِ

***

عَرِقَت فسال المسكُ فوقَ خدودِها
فكأنهــا، وبهــا الكــلام يُبــاحُ
وردُ الرياضِ عليهِ قطْراتُ النّدى
قــد ضــاعَ منــه أريجُــهُ الفــوّاحُ
أو جَمْعُ نَجـماتٍ بحُسْـنِ ضـيائها
وَبَريقِهـــا تَـــتَلألأُ الأفـــراحُ

***

أنــا إنْ بكيــتُ تَـدلَّلت محبـوبتي
ومشَتْ يَميسُ قوامُهـا المشـوقُ
وكــأنَّ قامتَهــا الرّشــيقةَ سَرْوةٌ
قـد رَفْرَفَـتْ أغصـانُها مِـنْ فَـوْقُ
وجَرَتْ على أقـدامِها الأنهـارُ، ذا
ســحرٌ وفتنـــةُ نـــاظرٍ وبريـــقُ

***

مَحبـوبتي سَـمِعَتْ أنينـي باكيـاً
فأصابَها الفَـرحُ المُخِفُّ المُضـحِكُ

فكــأنّ عينــيّ الــورودُ تفتّحَــتْ
وهــي البلابــلُ فوقَهــا تتحــرّكُ

***

معســولَةُ الشَّـفتَينِ تفـرَحُ عنـدما
عينـي عـلى الشـفتَينِ منهـا تـدمَعُ
فكأنهـــا ياقوتـــةٌ قـــد زادهـــا
ضــوءُ النّجــوم توهُّجــاً إذْ تلمَــعُ

***

كَالْخَوْخِ ـ يا «عوني» ـ احْمِرارُ خدودِها
وتَجَمَّلَــتْ فــوقَ الجــمال بِشَــامَهْ
فغَــدَتْ كأفْنــانٍ عليهــا وردةٌ
حَمَلَتْ على سِـحْرِ القلـوبِ علامَـهْ
وتكــبَّرَتْ بِجمالِهــا وبِخالِهــا
ورأتْــهُ بعْـدَ الحُسْــنِ تــاجَ كرامَـهْ

*   *   *

القصيدة الرابعة والعشرون

إذْ أُريقَتْ في الأرضِ كأسُكِ أعْطَتْ
لِـتُرابِ الأرضِ الحيـاةَ ولـذَّهْ
فـإذا مـا حَـيَّ الـتُّرابُ أأخشـى
عنـدَ رِجْلَيْـكِ أن أُصَيَّـرَ نُبْـذَهْ

* * *

ويلَ قلبي وحسـرَتِي مـن حريـقٍ
أشـعَلَتْ في الفـؤادِ هـذا الأصـيلا
نـارُ كـأسٍ حِيْنـاً، وحِيْنـاً مُحيّـا
تـاركٌ حُسْـنُهُ الفُـؤادَ علـيلا

* * *

ركبَـتْ فـوقَ مُهْـرَةٍ وانْحَنَـتْ فِي
رِقّـةٍ، ثُـمّ قبَّلَـتْ لَهـا عُنْقـا

فــدَعُوني كــيما أقبِّــلَ مــا قــد
لَثَمَتْــهُ، وألصِــقُ الفَــمَ لَصْــقا
أو ضَعُوا في عُنْقـي اللِّجـامَ فـإنّي
بِــهِ أرضى؛ فــإنّني هِمــتُ عِشْــقا

***

حـين تُبـدي دلالَهــا والصُّــدودا
يوشِكُ القلبُ من جـوىً أن يبيـدا
وتهُــبُّ الرّيــاحُ عاصــفةً، ثُمْـــ
ـــمَ تلظّــى نــارٌ تُــذيبُ الحديــدا
فتكــادُ النُّجــومُ تغــدو رمــاداً
ويَعُــمُّ الــرّدى الــذُّرى والبيــدا

***

ألِأجْــلِ الهــوى وأنَّــكَ تعْشَــقْ
أنــتَ مَزَّقْــتَ القلــبَ كُــلَّ مُمَــزَّقْ
وهتكتَ الأثوابَ والصَّدْرَ هتكـاً
كُفَّ ـ يا «عوني» ـ إنّ فعلَكَ أخرَقْ

أفَـما قــد كفــاكَ إهلاكُهــا القلْـــ

ــبَ كرَوضٍ وقْعُ الصَّواعِقِ أحرَقْ

* * *

القصيدة الخامسة والعشرون

يـا ذا الـذي جعَـلَ الآلام عادتَـهُ
أحرقتَني بالجوى والوجْدِ والكَمَدِ
وبالنوى قد طعنْتَ الصَّدْرَ، منهُ غدا
دمْعي كلونِ دمي في القلبِ والكبِدِ

***

حبيبتــي مثــلُ لــيلى في أناقتِهــا
لكنّهــا ترَكَتْنــي في الفــلا وَجِعــا
وقــابلَتْني بِخَــدٍّ صَــدَّ صــيَّرَني
قيساً وقد جُنَّ، أو مِنَ النوى هَلِعـا

***

أغنَيْتِنِي! فدموعي فضّــةٌ هُمِـرَتْ
وصار وجهيَ مُصفَرّاً كـما الـذهبُ

فصرتُ قارونَ في العشّاق مشتَهَراً
لكــنْ هلاكــي أراهُ آخِــراً يَجِــبُ

* * *

إذْ أذكُــرُ الشــفتَينِ كــان لــونُهما
لونَ الخمــورِ احْمــراراً أو هُمــا كَــدَمِ
كم أشتهي الرَّشْفَ لكنْ لا سبيلَ لهُ
فأحتسي من جراحي النازفاتِ دَمي
أو من دموعيَ حُمراً قد هَمَتْ وجَـرَتْ
لأجل ترضيْنَ ترضى العـينُ بـالألمِ

* * *

نهرانِ كالنيلِ إذ يجري وجيحونـا
عينـاي قــد هَمَتَـا بالــدمع محزونــا
فأمسكي الفيضَ بالوصالِ منكِ رضاً
أو إنه ضاع دمعي سـحَّ مشـنونا(١)

---

(١) الدمع المشنون: المصبوب شيئاً بعد شيء.

وما استفدتُ من البكاء حين أنـا
لم أجْلُ عنّـي غبـاراً للنـوى جَوْنـا

* * *

من بعد آلام هجرانٍ مـرَرتَ بِهـا
أصبحتَ صاحِبِها العزيزَ يا «عوني»
فانسَ الغريمَ ولا تُلمِحْ إليـه تـزِدْ
ـ معَ انشـغالكَ عنهـا ـ بلّـةَ الطـينِ

* * *

القصيدة السادسة والعشرون

متى ما صَرَخْتُ مِنَ القلبِ مرَّهْ
ولي كلَّ حينٍ صُراخٌ لِحَسْرَهْ
جِراحُ هُيامي تجري جميعاً
وأنزِفُ منها على الفَوْرِ ثَرَّهْ

***

لقَد قتَلَتْني بتقديم شَهْدٍ
وياقوتَ هذي الشِّفاهِ لِغَيْري
فيا عَجَباً مِن مَلاكٍ وديعٍ
مليءٍ بعطفٍ ولُطْفٍ وخَيْرِ
يضِنّ عليّ ويُردي فؤادي
ويُهدي سِوايَ الحياةَ بِجَوْرِ

***

ومهـــما يَكُــنْ شَــعْرُكِ السّــاحِرُ
فَحُسنُــــــهُ في صَـــيْدِنا مـــاهِرُ
وقلبـــيْ يُرفـــرفُ في خفَّـــةٍ
كـــما طـــار في الأُفُـــقِ الطـــائِرُ
ولـــيسَ يَخـــافُ اصـــطيادَ الهـــوى
لـــهُ بـــل هـــو الراغـــبُ النـــاظرُ

* * *

وذو العِشْق بـالأدمُع الصـافياتِ
مِـــنَ العـــينِ مَجـرى الهـوى يغسِــلُ
فيُبلِغُـــــــهُ قَـــــــدَمَي سَرْوَةٍ
رشـــيقةِ قَـــدٍّ، هِـــيَ الأمَـــلُ
فمِـــنْ كَلَـــفٍ بِهِـــما وجْهَـــهُ
يُمَسِّـــــحُ ثَـــمّ ولا يَخجَـــــلُ

* * *

ولو جاءَ «عوني» خيـالُ الحبيـبِ
ضَـــمَمْناهُ في ولَـــهٍ للصُّـــدورِ

فيَجلــو عَــنِ القلــبِ ظُلمَتَــهُ

ويأســو مواجِــعَ قلبــي الكسـيرِ

* * *

القصيدة السابعة والعشرون

حبيبــــةُ الفـــؤادِ لا ينتهـــي
ولا يُعَـــدُّ مـــا لهـــا مِـــنْ أذى
والقلـــبُ مـــا بـــين يـــديها غَـــدا
كطـــائرٍ يَـــرومُ شَـــمّ الشَّـــذا
مـــن وردةٍ أشـــواكَها أنشَـــبَتْ
فيـــهِ فمنهـــا دمُـــهُ قـــد غَـــذا[١]

***

لِأجلِهـــا ولالتـــذاذِ البَصَـــرْ
بحُســـنِها قلبـــي عليهـــا صـــبَرْ
بـــل إنـــهُ يُقـــدِّمُ الـــرُّوحَ إنْ
تـــرضى، وكـــلَّ عُمْـــرِهِ، والنَّظـــرْ

---

(١) غذا يغذو: سال.

وذاقَ مِـــنْ مكروهِـــهِ أضرُبـــاً
ولَمْ يُصَـــبْ لـــو مَـــرَّةً بالضَّـــجَرْ

* * *

يـــا أيُّهـــا القلـــبُ الكســـيرُ الـــذي
مـــا عـــاد يَسْـــطِيْعُ حتّـــى الأنـــيْنْ
لا تَـــترُكِ الآهـــاتِ؛ إذْ إنّهـــا
دلَّـــتْ عـــلى العِشـــقِ فيْـــكَ المتـــينْ

* * *

إنّ الحبيبـــــةَ التـــــي تعشـــــقُ
لا تـــرحَمُ الأنّـــاتِ والآهـــاتْ
بـــل إنّهـــا إن سَـــمِعَتْ صرْخـــةً
تـــأنَسُ بالأوجـــاع والصَّـــرْخاتْ

* * *

شَـــعرُكِ كـــالكواسِرِ الصّـــائِدَهْ
مـــاهرةٌ في قَنْصِـــها الأفئِـــدَهْ

وهـــا هـــو الفــؤادُ لي حــاضرٌ
أمامَهـــا يرغَـــبُ أن تطـــرُدَهْ
ولا يـــرى بأنـــهُ هالـــكٌ
بـــل إنـــهُ يظُـــنُّ أن تُخلِـــدَهْ

* * *

يـــا أيُّهـــا المتـــيَّمُ الوالـــهُ
ومـن يكـادُ الحُـبُّ يقضـي عليْـهْ
مــاذا انتظــارُكَ التــي لا تـــمُرّ
مِـن مكانِـكَ الـذي أنـتَ فيْـهْ[1]
ولـــيسَ هـــذا بِطَريـــقٍ لهـــا
بـــأربع لِـــمْ أنـــتَ ترنـــو إليْـــهْ

* * *

أفـنيتَ ـ يا «عوني» ـ جميعَ الـذي
قـد كـان مـن عِـزِّ الغنـى والثَّـرا

---

(١) البيتُ مُدَوَّرٌ، الراء المثقّلَة المضمومة في آخر صدره موزَّعة بين شطريه وزناً.

وصِرْتَ مُـــدقعاً فقـــيرَ اليـــدِ
ذا فاقـــةٍ تنـــامُ فـــوقَ الثَّـــرى
فكيـــف قـــد تُريـــدُها زوجـــةً
ومـــا لَهـــا تَســـطِيْعُ أنْ تَمهَـــرا

* * *

القصيدة الثامنة والعشرون

أنا لستُ أرجو منكِ جُوْداً بموعِدِ
لِتُحيِيْ فُـؤادي باللقـاءِ وتُسـعِدي
فـإنْ تـذكُرينِيْ مـرّةً أكتفـي بِهـا
ومن بعدِها بـالهَجْرِ قلبـيَ أبعِـدي

***

صنوبَـرَةٌ أضحَتْ تُظلِّـلُ سروتي
بِخِدْمَـتِها إن قصَّـرَتْ ذاتَ مَرّةِ[١]
سأقطَعُها من أصلِها بيَـدِيْ لِكـي
أُخلِّـصَ منهـا سَروتي وحبيبتـي

***

---

(١) الصنوبرة رمزٌ للرجل الذي أخذ منه معشوقته؛ كمـا بيّـنّا ذلك في مقدمة الديوان.

أُقـدِّمُ مـن أجـلِ الحبيبـة مُهجتـي
وأبــذُلُ روحــي لا مُجَّــرَدَ آلامــي
فهات الذي من أجلِها يـا غريْمَنـا
تُقدِّمُ قُربانـاً عـلى المَـذبَح السـامي

* * *

رأيتُكَ - يا «عوني» - غدا لـيس واصـلاً
إليك من الدنيا سوى الغـمّ والهـمِّ
سـتذهبُ أدراجَ الريــاح قصــائدٌ
كتبتَ عَدا الأشعارِ في الغـمِّ والهـمِّ

* * *

وإنّ التـي تَهـوى كأيقونـةٍ غَـدَتْ
فلوْ أنها بالوصل والقُـرْبِ أحيَـتِ
لِـمَا أحرَقَتْ بالهجرِ من جِسمِكَ الذي
تراباً غدا؛ فـالريحُ أسـفَتْ وأذرَتِ
فإذْ أعرَضَتْ فلْتَرْوِ بالـدمع جاريـاً
تُرابَــكَ تُحييــهِ لأجْــلِ الحبيبــةِ

القصيدة التاسعة والعشرون

لأجْــل أهْــدابكِ الجميلَــهْ
لَــو جــاءَني المــوتُ يــا كَحيلَــهْ
فــما أنــا ســائلٌ بقــائي
حيّــاً ولــو مُــدّةً قليلَــهْ

* * *

سَــمَنْدَرُ النّــارِ إن أخَــذْنا
منْــهُ الحُــروزَ مــعَ الــتَّمائمْ(١)
لا ينفَــعُ القلــبَ مِــنْ حريــقٍ
يُشــعِلُهُ الحُسْــنُ عنــدَ هــائمْ

* * *

---

(١) السمندرُ: حيوانٌ يُزعَمُ أنه يعيش في النار!

قــد تبتغــي منِّــيَ احــتمالا
لِضُــــرِّها، والأذى تَــــتالى
لِكــي تــرى: هــلْ أنــا مُحــبٌّ
لَهــا، أم الــحبُّ ليــسَ حــالا؟
كيــفَ احــتِمالي صــدُودَها والــ
أذى وحُــــزنِيْ وذا المَقــــالا؟

***

فاضــت دمــوعيَ مِــن عُيــونِي
كالسَّــيْلِ، أو لُجَــجِ البِحــارِ
لعلَّنــــي مُطفِــــئٌ بــــدمْعي
في القلــبِ حُــمَّ لهيــبَ نــاري

***

يــا أيُّهــا المُســتَهامُ «عــوني»
إنْ أنــتَ لَــمّا تَصِــلْ إليهــا
فــلا تَــدَعْ لِحــديثِ قلــبٍ
عــن أمنِيــاتِ الغــرام فيهــا

القصيدة الثلاثون

القطعة الأولى

لَمْ تُطِعْنـي يـا أيُّهـا القلـبُ حتـى
صـادَكَ الحُـبُّ والهـوى في النهايَـهْ
وأذلَّتْـكَ بالصُّـدودِ أمـامَ الـ
ـسكونِ حتّـى بلغْـتَ للـذُّلِ غايَـهْ

***

إنَّ مَنْ تهوى ما لَهـا عـن ظُلمِـكْ
ورعٌ أو مَخافـةٌ مِـن إثمِـكْ
وضـعيفٌ عـنِ احـتمالِ الجَـورِ
أنـتَ يـا أيُّهـا الفـؤادُ لِهمِّـكْ

***

وأنــا مــا درَيــتُ مــاذا أقــولُ
غـــيرَ آهٍ وويْلَتـــا ثُـــمَّ آهِ

***

كـم تألَّـمْـتَ أيُّهـا القلـبُ جِـدّا
وتأذَّيْـتَ بـل تمَزَّقــتَ وجْـدا
وبأشـواكِ الهـمِّ كـم ذا وُخِزْتـا
في شِـغافٍ، وهـدَّكَ الهجـرُ هـدّا

***

إنّ مـا سـالَ كالسـيولِ عـلى الأرْ
ضِ بأسـيافٍ للهـوى مـن دِماكـا
وبِـما قـد أصـابَكَ اليـومَ فَـاعْلَمْ
رُبـما أنـتَ قـد تُلاقـي رداكـا

***

قـــدرٌ مكتـــوبٌ ومـــا ليْ عليـــهِ
قُـــدرةٌ في تغيـــيرِ مـــا في سُـــطورِهْ

وإذا لَمْ يَجِـــــدْ فـــــؤاديْ دواءَ
للهــوى مــا لي حيلــةٌ في مَصــيرِهْ

* * *

أشهَرَتْ سيفَيْ حُسنِها والصُّدودِ
تبتغــي مَهلِــكَ الفــؤادِ العَميــدِ
فأنــا مــا الــذي ســأفعلُهُ لــو
دامَ هــذا، فــالموتُ غــيرُ بعيــدِ

* * *

ها أنا ذا مـا حيلتـي لسـتُ أدري
غـــيرُ آهٍ وويْلَتــــا ثُـــمَّ آهِ

* * *

القطعة الثانية

وإلامَ الأنـــــــــينُ والآلامُ
تبتغـــي غـــادةً بِهـــا الأحـــلامُ
عِيْلَ صبرُ الفؤادِ منكَ لأجْلِ الـــ
ــعِشْقِ والبـينِ أمضَـتِ الأيـامُ
فَلْتَقِفْ عندَ الحدِّ، لا تَـرْتَج الإيـــ
ــغالَ، لا تُهلِـكْ قلبَـكَ الأوهـامُ

***

إنَّ عشـقي لِشَـعْرِها ذي البَهـاءِ
جعـلَ القلـبَ في ضـنىً وبـلاءِ
ما الـذي هـذا اليـومَ أفعلُـهُ مِـن
بعدِ جَـري خلـفَ الحبيـبِ النـائي

وَيْحَ هذا الهوى إذا مـا اسـتطعتُ
وصـــلَ محبــوبٍ مُمعِــنٍ في الجفــاءِ

* * *

ها أنا ذا مـا حيلتـي لســتُ أدري
غــــيرُ آهٍ وويْلَتــــــا ثُــــــمَّ آهِ

*   *   *

القطعة الثالثة

قدري لَـمّا يُسعِفِ القلـبَ ذا الـ
ـــوجْدِ بوصـلِ حبيبَـهُ ذا الجـمالِ
هـدمَ البُعـدُ مُهجتـي ثـم لم تُعْـ
ـــمَرْ بِقُـربٍ أو بـارقٍ بِوِصـالِ

***

يـا لَقلبـيْ مِـن هـذه الأوجـاع
لَمْ يَعُـــدْ مِـــنْ غرامِـــهِ بانتِفـــاع
ومتـى سـوفَ أنتهـي مـن أنـينٍ
وصراخٍ وزفـــرةٍ وصُـــــداعِ

***

ها أنا ذا مـا حيلتـي لسـتُ أدري
غـــيرُ آهٍ وويْلَتـــا ثُـــمَّ آهِ

القطعة الرابعة

إن توسَّـــلتُ للحبيبـــةِ يومـــاً
أمعَنَـــتْ في صُـــدودِها والـــدلالِ
وأنينـــي إنْ مـــرّةً سَـــمِعتْهُ
هَزِئَـتْ مـن وجـدي وبيْ لم تُبـالِ

* * *

أفَـما بالآهـاتِ منـي اكتفَيـتِ
وبقلـبٍ أضـنى الغـرامُ اهتـزازا
بـل صـفَعْتِ المُحـبَّ حتـى غـدا
عُنْقُهُ جَنْكاً وصارَ وجْهُهُ صـازا(١)

* * *

(١) الجنك والصاز: آلتان تُضربانِ في العزف.

القطعة الخامسة

أتمنـــى لعشـــقِ قلبِـــيَ بُـــرْءاً
وشِـــفاءً بوصـــلِها وعلاجـــا
فـــإذا حُـــمَّ هجْرُهـــا أتمنّـــى الـــ
ـموتَ من قبلِ أن أرى بَيْنَها جا(١)

***

أنـــتَ ـ يا «عـوني» ـ قد علـــمتَ
بـــأنَّ الحُـــزنَ والآلامَ التـــي عانَيتـــا

---

(١) «جا»: جاء. حُذِفَت همزتُها، وهذا الحذفُ شائعٌ في لغة بعض العرب نثراً، يقولون: جا يَجِي، وشا يَشَا.
وهو ذائعٌ كذلك في الشعر، كقول النابغة الشيباني:

راعَهُ ضَيغَمٌ مِـنَ الأُسْـدِ وَردٌ ... جـا بِلَيـل يَهـيسُ في أدغـالِ

وكقول الإمام الشافعي:

مَـن جـا إليـكَ فَـرُحْ إلَيـهِ ... ومَـن جَفـاكَ فَصُـدَّ عنـهُ

ثَمـنُ واجِـبُ الأداءِ لِكَـي تظـ
ـــفَرَ يومــاً بِغــادةٍ قــد هَوِيتــا

***

أسَفي للسُّـــرور فِي دولـة العِشْـ
ـــقِ يُحـيجُ الفتــى إلى كــلِّ هــذا
لاحتِمالِ الإعراضِ والهجـرِ والآ
هاتِ والحُزنِ والضَّنى، ثـمّ مـاذا؟

***

ها أنا ذا مـا حيلتـي لسـتُ أدري
غَـــيرُ آهٍ وويْلَتـــا ثُـــمَّ آهِ

*　　*　　*

القصيدة الحادية والثلاثون

حبيبتـي حُسـنُها كالبـدر رونقُـهُ
ووجهُها الشمسُ في وسْطِ السماءِ علَتْ
ومـا أرتْنِـيَ يومـاً وُدَّهـا أبـداً
لو بـذْرةً، في مجاهيـل الفـؤادِ رَمَـتْ
فلـيسَ بِـدْعاً سـوادٌ مـن أنينِـيَ فِي
سماءِ قلبيْ بوجهيْ دُجْنُـهُ اجتمعَـتْ

***

كتبتُ شِعرَ أنيني مـن لظـىٰ كلَفـي
بِهـا قصـيداً عـلى الجـدران في البلـدِ
فكيفَ يُمكنُ من أحببتُ كـتْمُ هـوىً
قد ذاع من بعدِ ما بثثتُ مـن كبـدي

***

بلغتُ بالعشقِ فيهـا أرفـعَ الرُّتَـبِ
إلى مقــام رفيــع جِــدٍّ مُقــتَرِبِ
وليس يعرفُ ما حصّـلتُ مـن شرفٍ
إلا أولو العشق لا المحجوبون في الحُجُبِ
فسـوّدونِيْ علـيهمْ بعـدَما فهِمـوا
سُلطانَ أهلِ الهوى في الشرْقِ والغَرِبِ

***

آثــارَ أقــدامِها دفنــتُ في كبِــدي
وكان عَرْشـاً لهـا كانـتْ عليـه تَحُـلْ
وغادتي سـكنَتْ فيـهِ كـما سـكنَتْ
أمـيرةُ الحـبّ «ممتـازٌ» بتـاج محَـلْ(١)

---

(١) تاج محل: ضريح أقامه في مدينة أغرا ـ الهند الإمبراطور «شاهجهان» لزوجته «أرجُـمَند بانو» الملقبة بـ«ممتاز محل» (ت ١٦٣١م)، يعتبر الضريح أشهر أثرٍ للمُغل، ومن روائع الفن المعمـاري العالمي، يمتزج فيه العمار بالشعر والموسيقى، ويصل إلى درجات سامية تعبر عن النفس الإنسانية في لحظة النشوة العليا، فكأنه قصيدة في الرخام.

«المنجد في الأعلام» ص ١٨٠.

فَـ«جمْ» و«جمشيدُ» صارا حاسدَيَّ عـلى
عرشِ الغرامِ ولي تاجَ الهُيامِ نَحَـلْ(١)

* * *

جرَيتُ في طُرُقِ الهوى لأسبقَ من
ساروا بِها ذاتَ يوم قد مضـى قبلي
حتى لقد كحلَ العشّـاقُ أعيُـنَهُمْ
طُـرّاً بكُحْــلِ غُبــارِ ثــارَهُ نعــلي

* * *

قد علّم البينُ ـ يا «عوني» ـ فـؤادَكَ
قــد كــان يجهلُــهُ آلافَ أشــياءِ
وأثَّرَ الهجرُ في نفْسٍ لكَ احترَقَتْ
وخَرَّبَ القلبَ وروحاً صابَ بالداءِ
فصِرتُ درساً لأهل العشـقِ حكمتُـهُ
نـارَتْ لهُـمْ سُبُلَ الهـوى بأضـواءِ

---

(١) جم: القمر، وجمشيد: ملك من عظماء الفرس معنى اسمه عندهم: شعاع القمر. ينظر «الكامل في التاريخ» ١/ ٥٢.

القصيدة الثانية والثلاثون

كـــم ذا تكلّمنـــا عَـــن الآلامِ
وبِحُرقـــةٍ بُحْنـــا ونـــارِ غـــرامِ
فمتـــى يكـــون لقاؤُنـــا وصـــفاؤُنا
ورضاً بوصْلٍ صـــارَ في الأحـــلامِ؟
قد آنَ أن يـــأتي السُّـــرورُ ونلتقـــي
مِثْـــلَ الـــوُرودِ بثغرِهـــا البسّـــامِ

***

وأريـــدُ أن أمشـــيْ مَـــعَ النُّـــدَماءِ
لِنَعُـــبَّ كـــأسَ الخمـــرة الصَّـــهباءِ
نلهو ونقصفُ والشـــرابُ نُـــديرُهُ
والسُّـــكْرُ يرمينـــا عـــلى البطحـــاءِ

وكما تربّع «جمْ» عـلى عـرشٍ لـهُ
نرمي الجسـومَ عـلى عُـرُوشِ لِقـاءِ

* * *

أُنظُرْ إلى ذي الزّهدِ والتقوى الذي
يأبى علينـا خلـوةً مـعَ مـن نُحِـبْ
فلَسَـوفَ نُخـبِرُهُ بِحُرمـةِ كأسِـهِ
وَلَنَفضَـحَنَّهُ في الأنـام بـما شَرِبْ

* * *

وشُهرتُ مـا بـينَ البريّـةِ بالـذي
قد نِلـتُ منـكِ مـنَ الأذى بـالهجرِ
وفِدىً لـك الـنفسُ التـي آذيتِهـا
إمّـا ذكـرتِ أخـا الهـوى والصَّـبرِ
وليعـرِفنّ النّـاسُ طُـرّاً عنـدَها
أنّي الأحـقُّ بقلـبِ ذاتِ السِّـحرِ

* * *

دَعْ عنكَ إبليسَ الرجيمَ ودربَهُ
وعلى الصراط المستقيم فَسِرْ تَفُزْ
فَلَأنت ـ يا «عوني» ـ ابنُ آدمَ خِلقةً
فاعْصِ الغويَّ ولا تُطعْهُ إن يَؤُزْ
واتبَعْ سبيلَ جميلةٍ جِنّيّةٍ
غيرَ الحلا والحُسنِ يسحَرُ لم تَحُزْ

* * *

القصيدة الثالثة والثلاثون

عيونُــكِ نــرجسٌ، والخــدُّ وردُ
وبُــرعُمُ ثغــرِكِ المَعســولِ شَــهْدُ
يضــيءُ لنا جَمالُــكِ مثــلُ شَــمسٍ
وتزهــو وجنــةٌ، فَيَطُــولُ سُــهدُ

* * *

بِحُسنِكِ أشرقَ الـروضُ النضـيرُ
ومــاءُ شــبابِكِ العَــذْبُ النَّمــيرُ
سقى تُـربَ الحـدائقِ إذ مَشَـيتِ
فأينَعَــتِ الحشــائِشُ والزُّهــورُ

* * *

قَوامُـكِ فـارعٌ أعطـاكِ حُسـناً
وزادكِ روعـــةً، وَحَبـــا جَمــالا
وحُســنُكِ في المَفــاتِنِ والمُحيّــا
بسِــحْرِ القــدِّ قـد بلـغَ الكـمالا

* * *

أيَا مَن قـد عَمَـرتِ القلـبَ منّـي
بــآلامِ الصُّــدودِ مــعَ الجَفــاءِ
بوصْلِكِ أعمِـري القلـبَ المُعنّـى
قُبَيــلَ يُصــابُ حُســنُكِ بالفَنــاءِ
فغَـيرَ صـنائِعِ المعـروفِ عنـدي
فمــا شــيءٌ ـ وربِّـكِ ـ ذو بقـاءِ

* * *

وســلطنةُ الجَـمالِ هــي المحيّــا
وبــابُ حِمــى جمالِــكِ حاجِبــاكِ
قـدِ التَقيَـا فـأُغلِقَ دونَ عطـفٍ
وقتَّـــلَ في الرعايـــا نـــاظِراكِ

كَتَقتيـــــلِ زَبانِيَـــــةٍ شِـــــدادٍ
وشـــعرُكِ ســـاترٌ عنّـــا حَـــلاكِ

***

أَلَا إنّ انفـــــرادي في غرامـــــي
ـ أيـا ذا الزهـد ـ ليسَ بِـذي أثـامِ
وإذْ نظَـــمَ القصـــائدَ في جَمـــالٍ
ـ بِحمدِ الله ـ «عـوني» ذو الـتــزامِ
ومــا اقــترَفَ القبـائِحَ في سـلوكٍ
ولَم يـــأتِ بعيــــبٍ أو حَـــــرامِ

* * *

القصيدة الرابعة والثلاثون

إذا مـا الـورودُ التـي في الخُـدودِ
لقلبِـيْ أبَـتْ أنْ تَفِـيْ بـالوُعُودِ
سـيُنبِتُ يومـاً تُـرابُ ضريحـي
وإذْ أنـا رَهْـنُ عميـقِ اللحـودِ
وأزهارُهُ سـوفَ تُعطـي عظـامي
أريْجـاً يَفـوحُ كَعِطـرِ الخـدودِ

***

إذا نُحـتَ نَـوْحَ الحمامـةِ أوْ
رفعـتَ لِصـوتِكَ رفْـعَ البلابِـلْ
فـإنّ التـي وجهُهـا مُشْـبِهٌ
ورودَ الريـاضِ وزهْـرَ الخمائـلْ

ســتبقى سِهــــامٌ بـأهــــدابِها
تُصيبُكَ بينَ الشَّوى والـمَقاتِـلْ(١)

***

وعِليـــةُ قــوميْ مِــنَ الــوُزراءِ
كــذا مــن ذوي الشـأنِ والعُــلماءِ
غَــدَوا يَمســحونَ وجــوهَهُمُ
بتُربَــةِ أقــدامِها في رِضــاءِ
مليكــةُ قلبــي، وفي ذلَّتــي تَحـ
ـتَ أقــدامِها عــزّتي وعلائــي

***

تَجوَّلــتُ بــالعينِ في شَــعْرِها
فَهــالِ فــؤاديَ ليــلُ الظَّــلام
ولكنّنِــيْ قــطُّ لَمَ أســتَطِعْ
بِحُبّــيَ إخبارَهــا والهُيــام

---

(١) الشوى من أعضاء الجسم: عكس المَقاتل التي تقتُلُ إصابتُها.

قـــدِ اسْـــوَدَّ وجهِـــيَ قُـــدَّامَها
لنظْـراتِ عينـيْ وصـمتِ الكـلام

* * *

دُموعُـكَ ـ «عوني» ـــ مُحيطٌ لقـدْ
صـــبَبتَهُ مـــن عينِـــكَ الجاريَـــهْ
وفيـــهِ غرقـــتَ إلى قعـــرِهِ
وفيـــهِ نزلـــتَ إلى الهاويَـــهْ
وفي ســاحلِ منــهُ قــد نُظِمَــتْ
عُقـــودُ لآلِئِـــهِ الغاليَـــهْ

* * *

القصيدة الخامسة والثلاثون

هذي العروس إذا ارتَدَتْ أثوابَها
في الـروضِ فيـهِ تَينِـعُ الأزهـارُ
أخـذتْ بـراعمَ زهـرِهِ حَلْيـاً لهـا
وغـدا العُقـودَ لِجِيْـدِها النّـوّارُ

***

مـلأتْ أزاهـيرَ الحـدائقِ غَـيرةٌ
منها، وقـد حسـدَت بَراعمُهـا لَهَـا
وتعاهــدَتْ ورداتُهـا لِعتابِهـا
لكـنْ، وقـد سَـمِعَ الجميـعُ مَقالَهـا
قد دُلِّهوا، وتولَّهـوا، ونَسُـوا المـوا
عِـدَ عنـدَما رأتِ العيـونُ جَمالِهـا

***

إذْ تدخُليـنَ الروضَ تدخُلُ فتنـةٌ
ومَحاســنٌ طــارتْ لهُــنّ عُقــولُ
وإذا رآكِ اليـاسَــمينُ تســاقطَتْ
أزهــارُهُ؛ مِمّــا اعــتراهُ ذبُــولُ

***

ولقد رأيتُ الزّهـرَ يسـقُطُ ذابـلاً
إذ تعــبُرينَ طريـقَ منبتِـهِ النَّـدِيْ
ورأيــتُ أيضــاً مَـرّةً نسـرينةً
مـن قبـلِ أن تَهـوي، ولَـمّا تُخضَـدِ
وهبَتْـكِ كـلَّ أريجِهـا وجمالِهـا
لتعيشَ فيـكِ بعـدَ موتِهـا في الغـدِ

***

احْفَظْ دموعَ العينِ ـ يا «عوني» ـ لكَيْ
تسقيْ بِهـا روضَ الـورودِ الظـامي
فيظَلّ فيه الحسـنُ أخضـرَ يانعـاً
ويَـدومَ رونقُـهُ عـلى الأيـام

وتزورَهُ مَـعَ مَـنْ وُرودُ خـدودِها
أبهـــى مـــنَ الجُـــوريِّ في الأكــمام

* * *

القصيدة السادسة والثلاثون

ومَـــنْ يَــرى «غلاطـــةً» مــرّةً
وحُســـنَها البـــديعَ كالجنّـــةِ
لَســوفَ ينسـى دارَ أهــلِ التُّقـى
«عَـــدْناً»؛ لِمـا يَــراهُ مِـــن فِتنـــةِ
وسـوفَ ينسـى حُورَهـا إذْ يَـرى
مــن غِيــدِها القَــوامَ كالسَّـــروةِ

* * *

وفي «غلاطـــــةِ» جَميلاتُهـــــا
مــن بنـاتِ الـرُّومِ أهـلِ الصّـليْبْ
شـــفاهُهُنَّ إنْ رآهــــا امــــرُؤٌ
وشـاهَدَ الـرِّيَّ الشَّـهيَّ العجيْـبْ

يظنُّهـا مـن مُعجـزاتٍ لعيسـى
قـد تبقَّـتْ عـبرَةً لِلقُلـوْبْ

***

يـا أيهـا المسـلمون فلْتعلَمـوا
أنَّ الـذينَ حُسـنَها قـد يَـرَوْنْ
كهيكـلٍ عنـدَ النصـارى بـهِ
أيقونـةٌ لـربِّهمْ يَعبُـدوْنْ
لـن يملِكـوا أنفُسَـهُمْ عنـدَها
ورُبّـما مـن ديـنِهمْ يخرجـوْنْ

***

ومـنْ يَـذُقْ مـن خمرِهـا رشـفةً
لَسـوفَ ينسـى بعـدَها الكـوثَرَهْ
وهْـيَ إلى كنيسـةٍ دائـماً
داخلـةٌ، فصـاحبُ الهـوى إن يـرَهْ
لعلّـهُ مسـجدَهُ تـاركٌ
وداخـلٌ وراءَهـا الأديِـرَهْ

***

مَـنْ يَـرَ ـ يا «عوني» ـ لـزنّـارِها
مــن حــولِ خصــرِها لقــد لُفّــا
وحَــولِ عُنْقِهــا الصــليبُ الــذي
أبدتـــهُ للنـــاظرِ لا يخفـــى
يـــراكَ أحببـــتَ مسيحيّـــةً
روميّـــةً، والحـــبُّ لا يُشـــفى

* * *

القصيدة السابعة والثلاثون

ماذا يقول غريميْ حين يُبصرني
صدّت جميلةُ قلبي القلبَ وَالْتَوَتِ
وأنزلت من بلاء الهجرِ صاعقةً
عليَّ، قلبيَ كَيّاً بالنّوى كَوَتِ
وأجلسَتني طريداً في أسىً وجوىً
قُدّامَ أبوابِها، وخَلْفَها انزَوَتِ

***

رأيتُها عندَما جُزتُ محلَّتَها
أبهى البِقاع بهذا الكون أجمعِهِ
وقُلتُ: قد زيَّنَتْ ورودُها ائتلَقَتْ
حديقةً مُلِئَتْ بالزّهرِ أينَعِهِ

والحُسنُ من حُسنِها، وسِحرُ نُضـرَتِها
عشّـى الغصـون فحلّاهـا بأبرَعِـهِ

* * *

إنسـانةٌ كانسـيابِ المـاءِ مشـيتُها
بـين الـدروب بِـدلٍّ كـان فتّانـا
فـإنْ رآهـا الـورى يُسـارِعون إلى
ملء العيون من الحُسـن الـذي بانـا
وربّـما ازدحَمـوا، وربّـما اقتتلـوا
فيـا لَهـا فتنـةً سـارت بِـدُنيانا

* * *

لـو أنهـا رفعَـت نِقابَهـا وَبَـدَا
جَمالُهـا للـورى، وحُسـنُها شُـهِدا
لَهـالَ قـانِيْ خُـدودِها الأُلى نظـروا
وجُـنّ أكثـرُ مـن للرؤيـة احتشـدا
وظُنَّتِ الشمسُ في الخدّ الأسيلِ غدَتْ
ونورُها ثَـمّ مـن تحـتِ النقـابِ بـدا

* * *

وطرفةُ العينِ في سحرٍ وفي دعَـجِ
سيفٌ أصابَ فؤادَ ذي الغرامِ شَجِ
وأنتَ قلتَ ـ أيا «عوني» ـ وقد نظرتْ
إليكَ مغرورةً بالطَّرْفِ ذي الدَّعَجِ:
لـو أنهـا قتلَتْنِـيْ كُلّـما نظـرَتْ
إليّ، قلتُ: اقـتُلي أيضـاً بـلا حَـرَجِ

* * *

القصيدة الثامنة والثلاثون

وإنّي لَـمِمّن قدّموا مـن نفوسِـهِمْ
قرابينَ من أجْل الحواجِبِ والهُدْبِ
وجرّحني من عينِها سيفُ نظـرةٍ
وقد نظرَتْ نَحْوي بِها طعنَتْ قلبي
فلم يترُكِ المسكينُ أُمنيَّـةَ الهـوى
ولن يترُكَ المسكينُ صاحبةَ الحُـبِّ

* * *

ولـيس لِلُقياهـا إذا كـان قيمـةٌ
تُقـدَّرُ حتّـى لـو يُـثمَّنُ بالـدنيا
ولا شيءَ يوماً يعدل الحـبَّ إنـهُ
هو الهدفُ الأسمى مع الغاية العُليا

وليســتْ تُهِــمُّ القلــبَ آلامُ فُرقــةٍ
ويسـعى بآمـالٍ عِـراضٍ إلى اللُّقيـا

* * *

أمَحبوبــةً كانــت عــلى غــير ملّتــي
وظلّت عليها تبتغي ظُلْـمَ مُهجتـي
أصرّتْ على دين النصارى عيونُها
لتوقِـعَ عبـداً مسـلماً ضـمنَ فتنـةِ
وتُحيــي شِــفاهٌ فاتنــاتٌ قتيلَهــا
وتعمـلُ مـا شـاءتْ بِكِـبْرٍ وعِـزّةِ

* * *

شفاهُكِ تشفي كالطبيب مريضَـهُ
بقُبلَتهــا إن تمــنِحِ الصَّــبَّ ودَّهــا
ومن نال منها رشفةً من رضـابِها
سينسى احتساءَ الماءِ ما عاشَ بعدَها

ولن يذكُرَ الفردوسَ أو ماءَ كوثرٍ
لأنــهُ في سُــكرٍ فــؤادَهُ قــد دهــا

***

إذا فارقَتْ محبوبةُ القلبِ ذا الهوى
فذلك ـ يا «عوني» ـ لقد كان معناهُ
بقــاءَكَ في كــوخِ العــذابِ مُمــدّداً
وحيداً يُقاسي القلبُ في الهجر بلواهُ
وليسَ غدا في ظلمــةِ الليــل زائــرٌ
سِــوى الغــمّ والآلامِ تتبعُهــا الآهُ

*   *   *

القصيدة التاسعة والثلاثون

لــيس لِــلآلام التـــي في فــؤادي
مـــن فـــراقِ الأحبـــاب أيُّ دواءِ
لــيس شيءٌ بِمُــبرئِ القلــبِ كـلّا
غــيرُ مــوتي حُزنــاً وغــيرُ فَنــائي
أيُّهـــا المُســـلمونَ إن كـــانَ شيءٌ
عنـدكُمْ يشـفيني فهُلكـيَ جـائي

***

إنّ قلبي الولهانَ من فرطِ عشـقي
تَعِــسٌ مُضــنىً غَــصّ بــالأحزانِ
سَـــلبَتْهُ جِنّـــيّةٌ ذاتُ سِـــحْرٍ
بِقَـــوام كأنّـــهُ غُصـــنُ بـــانِ

وبِشَـــعْرٍ يطـــيرُ كـــلَّ اتجـــاهٍ
بِجُنـــونٍ قـــد جُـــنَّ منـــهُ جَنـــاني

***

عندما مِتُّ أكلُبُ الحيّ هاجَتْ
وَعَوَتْ مِـن سُرورِهـا بِشَـعوبي[1]
بيـــنَما الـــتمَّ أصـــدِقائي جميعـــاً
وعلاهُـمْ حُـزنٌ وصـوتُ نَحيـبِ
قد بَكَوا إذ تَحـدّثُوا في أسـىً عـن
مِيتَـةِ العاشـقِ الوحيـد الغريـبِ

***

لو أتى غـيمُ شـهرِ نيسـانَ يبكـي
ينثُـرُ الـدُّرَّ مـن عيـون السّـماءِ
فـــاعْلَمِي أنـــهُ يُقلِّـــدُ عينَيــــ
ـــكِ إذا مـا هَمَـى جُمـانُ البُكـاءِ

***

---

(١) الأكلب: جمع كلب، وشَعوب: اسم للمنية.

مُـدّعي الزهــدِ مُنكِـرٌ للغــرامِ
زاعــمٌ أنّ الفِسْــقَ حُكْـمُ الهُيـامِ
هُــوَ لــو كــانَ مؤمنــاً لَـرأى أنْ
لـيسَ عشـقُ العفيـفِ عشْـقَ أثـامِ
إنّ إيــمان المــرءِ يقــذفُ في قلــ
ــبهِ نــوراً يَجلــو سُــتورَ الظّــلامِ

* * *

صرتَ ـ يا «عوني» ـ يا مليكَ الرجالِ
عبــدَ سُــلطانةِ الحــلا والجــمالِ
هُــوَ فضــلُ الله الكــريمِ عــلى قلــ
ــبِكَ أنْ صِرْتَ عبـدَ ذاتِ الـدّلالِ
كيفَ أضحى السُّلطانُ عبداً لِـمملو
كتــهِ؟ واهــا لانقــلابِ الحــالِ

* * *

القصيدة الأربعون

أيُّها القلبُ الذي قد تورَّطْ
في هوى ذاتِ الحلا، ثُمّ أفرَطْ
في غرام، وهْو ما اسْطاعَ صبراً
واحتمالاً للأذى، فتهرَّطْ (١)
قد أذلّتك بصوتِ أنينِ
هَزِئ الناسُ بِهِ فتمرَّطْ (٢)

***

وإذا منها رغبتَ وصالاً
كُنْ لها في الكأسِ حبَّةَ هَيْلِ
نكهةٌ فيها أمالتْ إليها
قلبَها، أو ذُقتَ ذُلَّا بِوَيْلِ

---

(١) تهرّطَ: تمزّق.

(٢) تمرّطَ: سقَط، وكثيراً ما يُستعمل للشَّعر.

وقَسَــتْ ريـحُ الفـراقِ عـلى قلــ
ــبِكَ والــدُّنيا وظُلــمُ القَتــولِ

***

احــذَرَنْ فارســةً ذاتَ حــذْقِ
بفنــونِ صــيدِها عاشــقيها
لا تَقُــلْ: ســوفَ أُراضي بــذُلٍّ
طارحــاً وجهــي عــلى قــدميها
أنــتَ مِــنْ قبـلِ الوصـول إلى تُــر
بــةِ رِجلَيهــا لِلَــثْمِ يــدَيها
ســوفَ تُرديــكَ فتغــدو غُبــاراً
تحــتَ نَعلَيهــا أســيراً لــديها

***

قُلــتِ لي: إنّــكِ قــد تشــعُرينا
باكتئــابٍ وأســىً لِلّــذينا
قــدّموا أنفُــسَهُم تضــحياتٍ
لــكِ كــي تــرْضَيْ بِهــمْ عاشــقينا

أتمنّــــى أنّ قولَـــكِ هـــذا
منــهُ عنــدَ الغيــدِ لا تُحرَجينــا
أنــتِ أُولى الغيـد تُظهِـرُ عطفـاً
ومِـنَ الرُّحْمـى الغـواني خلَونـا[١]

* * *

دمــعُ عينيــكَ كأنــهُ أضــحى
قــد طــلاهُ ناصــعٌ مــن لُجَــينِ
ومُحيّـــاكَ عـــلاهُ اصـــفرارٌ
ذهبـــيٌّ مـــن سُـــهادٍ وأنـــينِ
اِصبرَنْ ـ «عوني» ـ فـلا بُـدَّ يومـاً
تقبَـــلُ المعســـولةُ الشـــفتَينِ
بِـــكَ زوجـــاً وحبيبـــاً فيزهـــو
عُمْـــرُكَ البـــاقي بأجمَـــلِ لـــونِ

---

(١) الرُّحمى: الرحمة.

القصيدة الحادية والأربعون

من أجلِها لو عـلا صـوتي بأنّـاتي
وهتّكَتْ من سكون الليلِ صرْخاتي
فطيـفُ فـاتنتي لم يـأْتِ زاويَتـي
ومجلِسـي ظـلّ فِي حُـزنٍ وظُلْـماتِ

***

يـا شـمعةً نـوّرتْ قبـلُ ليالِيَنـا
لم تشـتَعلْ لِتُنـير غُرفتـي الليلَـهْ
فلو فؤادي بَقِيْ في جوفِ ظُلمَتـهِ
إلى الصباح أسىً يصيحُ: يـا ويلَـهْ
لا يعجبنّ امرؤٌ مـن سـوء حالتِـهِ
إذا رأى البؤسَ والحرمانَ والعَيْلَـهْ

***

ولو بكى عندليبُ القلبِ في حَزَنٍ
من هذه الحال لا يعْجَبْ لـهُ أحـدُ
فالحالُ حالُ جوىً من نار فُرقتِهمْ
والعــينُ دامعــةٌ، ولُــوِّعَ الكبــدُ

* * *

يا ساقيَ الكأسِ كي ننسى مواجِعَنا
أترِعْ لنا بـالطِّلا الأقـداحَ واسـقينا
إنّ الحبيبــة مــا راعــت مواثِقَنــا
وعهـدَنا نقضَــتْ فأشــمتَتْ فينــا
وبعــدما وعــدتنا بالزيـارة لَــمْ
تــأتِ لِموعــدِها كــيما تُلاقينــا

* * *

أتَتْ إليَّ يَميسُ القـدُّ مـن هَيَـفٍ
رشـيقةٌ تَسـحرُ الألبـابَ قامتُهـا
فإذْ رأتها عيوني في أسـىً وجـوىً
أبكَــتْ مآقيَهــا الــدّماءَ حالتُهــا

ودامَ نَــوْحيْ إلى لــيليْ وظُلمَتِــهِ
كــذاك تفعَــلُ بي دومــاً ظُلامتُهــا

***

ما دامَ لَمْ تأتِ ـ يا «عوني» ـ الحبيبةُ كي
تُضــيءَ شمعةُ لُقياهــا لــك الظُّلَــما
فإنّــكَ اليــومَ بــالهِجرانِ مُحْــترقٌ
مــن نــارِهِ ستُعاني الليلــةَ الألمــا

***

لو أنها سَمِعَتْ شِعراً كتبتَ بِهــا
تفــيضُ بالحُــبِّ والأشــواقِ قافيتُــهْ
لَسوفَ تــأتي إليــكَ اليــومَ زائــرةً
مــا أســعدَ القلــبَ إذْ تأتيــه زائرتُــهْ
وسوفَ يأتي «سعيدٌ» زائراً مَعَهــا
كذا «سُليمانُ» والأخبارُ دافِعَتُــهْ[١]

---

(١) لم أستطع على سبيل الدقة تحديد المراد بـ«سعيد» و«سليمان»، ولكنني أحسب أنهما شاعرانِ يُريدان أن يُلقيا نظرةً على شعرِهِ كما يقول.

وسوفَ يُلقُونَ نظْراتٍ على غَـزَلٍ
بِحُبِّهــا مُفعَـــم أوحتْــهُ عاطِفَتُــهْ

* * *

مسرد المصادر والمراجع

- «أبجد العلوم» لصدّيق حسن خان القنوجي (١٣٠٧هـ).

أعده للطبع ووضع فهارسه: عبدِ الجبار زكار. منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق: ١٩٧٨م.

- «إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون» لإسماعيل باشا البغدادي (١٣٣٩هـ).

دار الكتب العلمية ـ بيروت: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

- «تاريخ الدولة العلية العثمانية» للأستاذ محمد فريد بك المحامي.

تحقيق: د. إحسان حقّي. دار النفائس ـ بيروت. ط١: ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

- «التاريخ الصغير» للإمام البخاري (٢٥٦هـ).

تحقيق: محمود إبراهيم زايد. فهرَسَ أحاديثه: د. يوسف المرعشلي. دار المعرفة ـ بيروت. ط١: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

- «التاريخ الكبير» للإمام البخاري (٢٥٦هـ).

د. تح ود. ت. يُطلَب من دار الكتب العلمية ـ بيروت.

- «السلطان محمد الفاتح: فاتح القسطنطينية وقاهر الروم» للدكتور عبد السلام عبد العزيز فهمي.
دار القلم ـ دمشق وبيروت. ط٥: ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- «سنن ابن ماجه» للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد الربعي (٢٧٥هـ).
بإشراف ومراجعة الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ دار السلام ـ الرياض. ط ١: ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لابن العماد الحنبلي (١٠٩٨هـ).
أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط حققه وعلق عليه: محمود الأرناؤوط. دار ابن كثير ـ دمشق وبيروت. ط١: ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- «الشعراء السلاطين» تأليف: مصطفى أيسن وفؤاد بيلقان.
- «الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع» للحافظ السخاوي (٩٠٢هـ).
منشورات دار مكتبة الحياة بيروت. (د. تح) و(د. تخ).
- «العثمانيون في الحضارة والتاريخ» للدكتور محمد حرب.
دار القلم ـ دمشق وبيروت.
- «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (٨١٧ هـ).
ضبط وتوثيق يوسف: الشيخ محمد البقاعي. إشراف: مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر. دار الفكر ـ بيروت. ط: ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ـ «الكامل في التاريخ» لابن الأثير الجزري (٦٢٠هـ).

تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ـ «لسان العرب» لابن منظور (٧١١هـ).

اعتنى بتصحيحها: أيمن محمد عبد الوهاب ومحمد صادق العبيدي.

دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ـ بيروت. ط٣: ١٩٨٦م.

ـ «المستدرك على الصحيحين» للحافظ أبي عبد الحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ).

تحقيق: عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١: ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

ـ «المسند» للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (٢٤١هـ) الموسوعة الحديثية.

المشرف العام على إصدار الموسوعة د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.

المشرف العام على تحقيق المسند: الشيخ شعيب الأرناؤوط مؤسسة الرسالة. ط١: ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

ـ «المعجم الكبير» للإمام أبي القاسم الطبراني (٣٦٠هـ).

حققه وخرّج أحاديثه: حمدي عبد المجيد. دار إحياء التراث العربي: ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ـ «معرفة الصحابة» للحافظ أبي نعيم الأصبهاني (٤٣٠هـ).

تحقيق: عادل يوسف العزازي. دار الوطن للنشر ـ الرياض. ط١: ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

ـ «المنجد في الأعلام» ط ١٠. دار المشرق ـ بيروت.

ـ «نظم العقيان في تراجم الأعيان» للسيوطي (٩١١هـ).

حرره: د. فيليب حتي. المطبعة السورية الأمريكية في نيويورك لصاحبها سلوم مكرزل. طبعة مصورة. الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت.

* * *

مسرد المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

لقد كنت أبحث - في الوقت الذي كنت فيه بصدد كتابة السيناريو التلفزيوني عن السلطان الفاتح - عن بعض كلمات له أثبت من خلالها سموّ روحِه وإنسانيّته. بدأت رحلة البحث من المكتبة الوطنية بدمشق، مروراً بخزائن المخطوطات والكتب النادرة في سورية ومصر وتركيا، حتى حصلت على نسخة عتيقة من ديوان شعرٍ له، ثم توجّهت إلى بعض الأصدقاء في تركيا، للبحث عن ترجمان ينقله من العثمانية، ثم عن شاعرٍ متمكّن ينظمه بالعربية، ويحرص على صوغ مشاعره بأسلوب يليق بالفاتح العظيم. فكانت هذه الجوهرة التي تقدّمها اليوم «أروقة للدراسات والنشر» بهذه الحلة القشيبة وهذا المظهر الرائع. وسيكون هذا الديوان بإذن الله فاتحة لسلسلة فريدة من دواوين للسلاطين العثمانيين، ومؤلفات نثرية وجدانية لهم؛ نرجو أن نوفّق لنشرها قريباً.

الباحثة روان الحلبي ، دمشق

أروقة للدراسات والنشر
... ٤٦٤٦١١٦٣٠ (٠٠٩٦٢٦)
... عمان ١١١٩٦ الأردن
info@arwiqa.net
www.arwiqa.net
9789957566265